الموت بنكهة الريحان

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com@yahoo.com

الموت بنكهة الريحان

أحمد العدل

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٩م

غلاف : إسلام مجاهد

التصميم والمراجعة اللغوية: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ؟؟؟؟ / 2019

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

الموت بنكهة الريحان

رواية

أحمد العدل

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

إهداء خاص

أكتبه لها

تلك الحروف لم تظهر حينما كُتِبت بالأحبار، لكنها حُفِرَت على السطور بعدما كتبتها بحبر قلبي، لتكن صفحاتها نابصة.. بكِ.. ولكِ

نجم الدين

شكر و تقدير

عائلتي.. والداى و أخواتى، لم يكن لذلك القلم أن يكتب كلمة بدون ثقتكم، فلا حرمني الله وجودكم..شكر خاص لأمى الغالية و التى تؤمن بي دائما وكانت لي خير داعم

عائلتى الكبيرة، أهلي و رفاقي بعائلة أسرار الكتب، دون دعمكم وثقتكم لم يكن لهذا الكتاب أن يظهر، شكر خاص على الثقة

لأستاذة وفاء حامد صاحبت التوجيه و الدعم، لن أنسى تلك الدفعة مدى الحياة و أتمنى أن تكون عند حسن الظن

الأستاذة دينا أحمد أشكرك جدا على ثقتك فيما كتبت و الثقة بتلك الحروف و أدعو الله أن تظل دائما، إن طال بي العمر لن أستطيع أن أفى قدركما عندي، لن أنسى باقى أفراد العائلة فى دعمهم و تقديرهم فلهم منى بالغ الشكر و التحايا

أسرة دريم بن، أشكركم على الثقة و أتمنى من الله أن أكون عند حسن الظن

لحظة من فضلك..

لا تقرأ هذا المحتوى قبل وصولك لغرفتك.

بادئ قبل ذى بدء، سوف يتساءل البعض لماذا أكتب عن قضية ليست ظاهرة بساحة المجتمع المصرى؟ ما السبب الذى دفع ذلك القلم للغوص ببحر مجهول؟ لماذا ينبش بالقبور؟.

سأخبركم شيئًا بسيطًا جدًا.. اختفاء الفكرة لا يعنى انعدامها، فما خلف الأبواب المغلقة لا تراه عين، ولا تسمعه أذن إلا المتلصّصين، لا يوجد لديكم دليل أن تلك القضية لا تحدث بالمجتمع، لكن سأدع لكم البحث عن الأصوات التى تنادى بها ولها.

القتل الرحيم، موت الرحمة، القتل بدافع الشفقة كلها مصطلحات تحمل نفس المعنى، تعنى ممارسة إنهاء حياة إنسان بهدف تخفيف معاناته أو ألمه، لكن دعنى أسألك سؤالا هاما، هل سألت نفسك يوما لماذا خصك الإنسان بتلك المعاناة؟

ستجد جوابًا ذلك بين السطور، كن مستعدًا لهذا وعليك أن تفكر جيدًا بكل كلمة تقع عليها عينك ولا تدعها تمر دون تفكير.

لا أريد أن أطيل عليكم للدخول بتلك الملحمة، سأقول كلمة أخيرة قبل الذهاب .. لا تقفز بالماء وأنت لا تجيد السباحة.

الروح أمانة.. والحياة هبة الخالق..

الفصل الأول

الحادى عشر من نوفمبر ٢٠١٤...

موسم الخريف..

تساقط أوراق الشجر من على أغصانها اليابسة يشبه كثيرا تساقط الأيام من على ظهر كهل مرتجل من ركب الحياة، لكنه يحمل خلف مُحياه تجاعيد الأيام التى تنذر أن العام على مشارف النهاية، موت عام و ميلاد عام جديد من رحم الزمن.

لا أدرى هل تلك حالة عامة فى ذلك الوقت أم حالة ارتسمت على جدران منزل العقيد إبراهيم عبد العزيز، على الرغم أن ذلك المنزل فى الماضى كان يكسوه الربيع الدائم حتى فى الشتاء و البرد القارص، لكن ذلك المنزل كان يرتوى بماء المطر لتزهر داخله الحياة على صوت ضحكات العقيد وزوجته كاميليا الحسناء.

ربما نسى أحدهم نافذة المنزل مفتوحة ذات خريف ليتسلل الحزن داخله حتى بات ذلك المنزل مرتعا لأشباح السعادة تختبئ من واقع الحزن المترامى على جدرانه.. ذات خريف شاب ذلك المنزل و أرتحل عنه الفرح لتسكنه الذكريات

السابعة صباحا.. تتسلل كاميليا داخل غرفة العقيد النائم، صاحبة الثمانية و أربعين عاما، الممشوقة القوام و التى ظهر على ملامحها بعض ندوب العمر على شَكل تجاعيد خفيفة

تحيـط العينيـن، لكن تلك التجاعيـد لم تفلح فـى إخفاء جمال عينيها المتشـحة بالحزن، تتجه بخطوات ثابتة نحو نافذة الغرفة لتزيح السـتائر عنها كى تسمح لأعين النهار النظر داخل الغرفة و أصابـع النـور تضع لمسـتها الصباحية علـى وجـه النائم..تتجه صـوب المنضـدة الموازيـة للسـرير تضـع عليها منشـفة كبيرة بيضاء و تذهب آخيرا للسرير كى تزيح عنه ستارة آخرى تحيطه أشـبة بالناموسية المسـتخدمة للحماية من الحشرات، ثم تجلس على حافة السـرير بجوار قدم إبراهيم النائم.. أو المسـتلقى على الفراش و كأنه نائم.

الروتيـن اليومـى المعتـاد منـذ إحدى عشـر عامـا منصرمة، تسـاعد كاميليا زوجها جليـس الفراش منذ إصابته بحادث فقد عـن اثـره القدرة علـى حركـة أطرافه الأربـع بعد قطـع بالحبل الشـوكى، لتنتهى معه حياته المهنية كعقيد بالجيش المصرى أمضى حياته فى محاربة أعداء بلاده ليبدأ حربه الخاصة بمحاربة مرضه اللعين بسلاح واحد لا يملك غيره و هو الإبتسامة.. فقط.

تبـدأ كاميليـا بإزاحة ملابسـه قطعـة تلو الأخـرى حتى تبدأ بتنظيف جسـده من الداخل بتلك المنشـفة البيضاء المبللة بالماء الدافئ، لينظر لها إبراهيم نظرة طفولية مبتسما و هو يقول:

«متى سـيكبر ذلك الطفل الصغير لينهض من فراشه و يبدل ثيابه بنفسه و يستحم دون مساعدة أمه الجميلة؟ «

نظرت له مبتسمة و هى تداعب وجنته فى حنان حين قالت:

«ومـن قـال لـك أن تلـك الأم تريد طفلهـا أن يكبر و يسـتحم

بمفرده؟ و لو مرت إحدى عشر عاما آخرى ستظل طفلى الوديع الذى ألاطفه و أبدل له ثيابه فى فرح كل صباح يا صغيرى المدلل».

رمقها بطرف عينيه فى خبث دون أن ينطق و لكنه إبتسم، حينها قالت له:

« كف عن تلك النظرة أيها العربيد الصغير فأنا أعرف ما خلفها».

وتبادلا ضحكات خفيفة.. ربما كانت على شكل ضحكة و لكنها مغلفة بالآلم الذى حملته لهم سنوات من المعاناة ثم الوحدة، فذلك البيت خال من البشر، لم ينعم عليهما الله بالذرية، و انقطع غصن الأصدقاء عن تلك الشجرة إلا القليل الذى يأتى من كل فترة ليتفقد حال ذلك العاجز و زوجته، أو ربما تتثاقل الخطوات فيكتفى بمحادثة هاتفية، عدا ذلك توجد ممرضة العقيد و التى تأتى كل يوم فى الواحدة ظهرا لتباشر صحته، ثم تنصرف الساعة التاسعة ليلا فيصبح البيت خال تمام من أى معالم للحياة غير أنفاس الزوجين المحبوسة خلف ضلوع ملتهبة أشعلها الحزن.

تذهب بعدها كاميليا لإحضار وجبة الإفطار، ذلك المحروم من النظر خارج نافذة الغرفة و لكنه أصبح يملك بصيرة حادة تُمكنه من الخروج خارج جدران الغرفة يتنسم نسيم الخريف الصباحى و ينعم بلحظات تخطو فيها روحه نحو اللامكان حيث يرسم فى مخيلته تلك الحديقة خارج منزله و التى لا يراها إلا صدفة من على كرسيه المتحرك، وعلى الرغم من تلك المعاناة

التى تستمر منذ أعوام؛ إلا أنه أخذ يدندن بأغنية أم كلثوم (يا صباح الخير ياللى معانا)، يردد كلماتها فى تناسق و يشدو بصافرة خفيفة على شفتيه الصغيرة.

حينما اقتربت كاميليا من باب الغرفة؛ كان لازال يدندن بكلمات الأغنية لكنها توقفت عن الحركة، لم تستطع كبح جماح قطرات الدمع المحبوسة خلف عينيها.. و تلك التساؤلات تكاد تقتل الإستيعاب لديها، كيف يحتمل تلك المعاناة و قلما يفصح عما بداخله؟ أحد عشر عاما جليس الفراش لا يشعر حتى حينما يقضى حاجته و لا يُظهر إحراجه من زوجته حينما تبدل له ثيابه المتسخة من فضلاته!!.. حتى إبن أخيه و الذى بمثابة ابنه و صديقه الوحيد و الذى يصارع الموت هو الآخر حبيس غيبوبة استمرت عام و أكثر الآن بعد حادث تفجير فى رفح؟ لقد أصبح وحيدا تماما و يخفى معاناته حتى عن أقرب الأقربين، و لكن أين هم الأقربين ؟ انه وحيد تماما منعزل، ربما يتهرب من الناس حتى لا يرى الشفقة فى أعينهم.

استجمعت قواها بعد تلك الدمعات الهاربة من محبسها كى تناوله طعام إفطاره و عقاقيره، لكن قلبها لم يهدأ ، حينما قررت الدخول عليه فى تلك اللحظة و لم تقاطعه حيث استكمل الدندنة و هى لم تلتفت نحوه واضعة الافطار على المنضدة، ثم اجلسته على السرير و جلست أمامه تماما حينما نظر داخل عينيها قائلا:

« نسيتى أن تمسحى الدمعة المنسابة من تلك العينين، ربما أنا عاجز لا أتحرك و لكن لازالت عينى بخير يا جميلتى». لم

تقاطعه و لكنها نظرت له و حملت كفيه بين يديها لتطبع عليهما قبلة دافئة، لن يشعر بتلامس شفتيها و لكن قلبه شعر بما هو أكبر، شعر بحنان تلك الزوجة التى تحارب معه و لم تيأس لحظة.

تناولا معا طعام الإفطار و من بعدها عقاقيره الصباحية، وكالعادة اليومية كان موعد تصفح الجريدة ذلك الشئ الذى يبقيه فى اتصال مع العالم قليلا، أخذت تقرأ له تفاصيل الأخبار و هو ينظر تجاه النافذة فى لا مبالاة، حينما توقفت عن القراءة وقالت:

«لا جديد اليوم حتى حالة الطقس مستقرة و الهدو.....» قاطعها و هو لازال ينظر للنافذة قائلاً:

«لقد رأيت سمير ليلة أمس بمنامي، كان يتألم و يشير إلى من بعيد كأنه يودعنى، عام و أكثر بالغيبوبة و لا جديد، ذلك الشاب الصغير الذى دخل فى صراع مع الموت هو الآخر، لا أدرى لما يجذبنا الموت نحوه من أطراف أقدامنا و يتركنا للحياة مرة آخرى نصف أحياء نتعذب، لما هذا الصغير؟ لما ؟!!».

زادت معاناة إبراهيم بعدما حل بسمير، كان كإبنه و أكثر و لا يتركه فى إجازات عمله قط، حتى حدث ذلك الحادث الإرهابى و سقط فى براثن الغيبوبة يصارع الموت ، منذ ذلك الحين و تحولت حياة إبراهيم للون أسود و عيناه لا ترى سوى الخريف، حتى مع ابتسامته و محاولاته البائسة فى قتل عجزه أو تخديره لسويعات قليلة كى ينعم بحياة هادئة و لكن لا الحياة ساعدته و لا الموت أراحه.

مر الوقت بتثاقل رهيب حتى دقت الساعة معلنة تمام الواحدة ظهرا ليدق الباب، إنه موعد قدوم نجوى، ممرضة العقيد الشابة و التى تناوب حالته منذ ثلاثة أعوام دون إنقطاع و التى تحب العقيد و زوجته كأبويها و كذلك هما، تفتح كاميليا الباب لتستقبلها، فتاة جميلة قصيرة القامة ذات جسد ممتلئ قليلا و شعر أسود طويل منسدل خلفها، دائمة الإبتسامة و كانت كاميليا تحب إبتسمتها كثيرا، ليتبادلا التحية قبل أن تدخل نجوى فى هدوء و تغلق من خلفها الباب.

تستأذن نجوى بالدخول لغرفة إبراهيم الجالس على كرسيه المتحرك أمام النافذة، فيأذن لها بالدخول لتبدأ بمزاولة عملها دون تردد و الإطمئنان على حالته قبل إعطائه جلسة التنفس، بعد أن أنهت الجلسة باغتها بسؤال:

«هل تحدثتى مع الدكتور جورج بخصوص سمير ؟»

نظرت إلى النافذة محاولة إخفاء شعورها بالحزن، و لكن قد أكل الحزن لسانها و لم تقوى على النطق بينما كرر عليها إبراهيم سؤاله، هنا نظرت له قائلة:

«ذهبت إليه اليوم قبل حضورى، أخبرنى أن الحالة كما هى و أن الخبير الألمانى قد إطلع على ملف حالته كاملة و أخبره....» لم تستطع إكمال الجملة بلسانها و أكملتها بسيل من الدموع و هى تنظر صوب كاميليا التى كانت تستمع إليهما عند باب الغرفة، لتسود من بعدها حالة من الصمت القاتل، قبل أن يقطعه صوت إبراهيم الممتلئ بالحزن قائلا:

«لقد إستسلم سمير سريعا و ترك يدى هو الآخر، كنت أعلم أن ذلك الشاب سوف يخسر عراكه مع الموت ليقع فيه، ولكنه ما زال معلقا على أسوار الحياة بانتظار تذكرة الذهاب». نظرت إليه كاميليا فى غضب قائلة:

«ماذا تقول ؟ الطبيب لم يخبرك بوفاته و هو لازال بيننا ، ما الذى جعلك تقول ذلك الآن؟ إنه ابنى مثلما هو ابنك، لا تفعل أرجووك».

أجابها و هو يصرخ منفعلا:

«إنها الحقيقة، سمير ليس إلا جسد معلق ببعض الأجهزة، أخبرنى جورج أنه بإنتظار تقرير ذلك الخبير إن كان هناك جديد أو إن سمير مات إكلينيكيا كما يقولون، أنا أخفيت ذلك عنك نعم، و لم أنوى أن أخبرك و لولا أنك استمعتى لحوارى مع نجوى لن أخبرك».

اقتربت منه كاميليا فى انفعال شديد، وقفت أمامه مباشرة و قبل أن تنطق بشئ صرخ فيها مع نظرة حادة لم تعهدها قائلا:

«اتركونى الآن، لا أريد أحد هنا.. هيا أغربوا عن وجهى بسرعة».

الألم.. كلمة قصيرة جدا ذات معنى لا يقارن بحجم حروفها، خاصة لشخص أجبرته الحياة على التعلق بينها و بين الموت، شخص كان يحارب المعاناة بمن حوله و لكنه اكتشف أنه كل يوم يخسر شخص، كرقعة شطرنج كان ابراهيم يخوض حياته ضد الموت، خسر أغلب جنوده بتلك الرقعة، و الآن يخسر

وزيره سمير و يسلمه للموت، لقد انكشفت الرقعة و أصبح وحيدا تماما، فما كان منه إلا أن يصرخ بزوجته و البيدق الأخير لديه، لكنه فعل ذلك كى تفسح له الطريق كى يبكى.. نعم لقد وصل لحافة الهاوية و لابد من الإنفجار بالبكاء آخيرا بعد تلك السنوات.

ثلاث ساعات قضاها وحده دون أن يزعجه أحد لم تنقطع دموعه لحظة حتى ابتل قميصه و تحولت عيناه لقطعة من الجمر الملتهب، حتى قاطعته نجوى بطلب الاستذان، رد عليها فى انكسار:

«ماذا هناك ؟» ردت عليه فى هدوء أن الدكتور جورج يرغب بالتحدث إليه، فسمح لها بالدخول كى يرد عليه، دون أن ينظر لها بدأ حديثه مع الطبيب قائلا:

«جورج كيف حالك؟» جاءه الرد عبر الهاتف:

«بخير يا إبراهيم.. أتمنى أن تكون أفضل اليوم» أجابه فى تهكم قائلا:

«نعم بخير و على وشك الذهاب لصالة الألعاب الرياضية لبعض التمارين، أخبرنى يا جورج عن وضع سمير».

صمت جورج قليلا يفكر بما سيقول، لكنه أخيرا بدأ بالحديث قائلا:

«فى الحقيقة لا أدرى كيف سأقول هذا لكن سيدى الـ...».

قاطعه ابراهيم بغتة قائلا:

«لقد فهمت، إذن فقد حان الوقت لوداعه، أرجوك ارسل لى

الأوراق المطلوبة غدا مع نجوى و سوف تختمها كاميليا».

قاطعه جورج فى سرعة:

«لا تتسرع يا إبراهيم علينا أن..» حينما احدت نبرة صوت إبراهيم قائلا:

«عام و أكثر يتعذب و روحه معلقة، و أنت كل يوم تكرر نفس الشئ، نفذ ما طلبت منك يا جورج».

هل كان أمرا عسكريا؟ هل كانت كلمات من واقع الصدمة؟ هل كان حقا يعى ما يقول و بتلك النبرة الصارمة وكأنه يرسله إلى نزهة لا إلى الموت ؟

الشىء الوحيد الذى لم يفهمه أحد غيره هو أن إبراهيم قطع تذكرة ابن أخيه للعالم الآخر حتى يمنحه بذلك الموت سبيلا للرحمة.

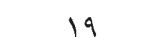

الفصل الثانى

لـم يضع جـورج سـماعة الهاتف مكانهـا و تجمـدت أطرافه كأن الوقـت توقف به من الصدمة ، طوال عمله كطبيب و حتى خلال سنوات عمره الخمسين قد مرت عليه الكثير من الحالات و تنوعـت ردود الأفعال عليها ، لكن مـا فعله إبراهيم الآن كان صادما جدا لجورج.

طبيـب العائلة و صديق العقيد منذ الطفولة و أكثر من يعرف حالتـه الصحيـة و النفسـية ، كمـا يعـرف جيـدا من هو سـمير بالنسـبة له ، و على الرغم من تمام المعرفة قد صعقه الأمر ، لقد وقـع العقيد على شـهادة وفاة ابن أخيه ليخرجه مـن نفق الغيبوبة المظلمة إلى العالم الآخر الفسيح ، قتل بلون الرحمة.

بينمـا هو مسـتغرق فى محاولة اسـتيعاب ما حـدث دخل عليه أحد زملائه المكتب دون أن يشعر به ، لفت انتباه الطبيب الآخر حالة جورج و صمته على غير العادة ، فأقترب منه سائلا :

« جـورج.. ماذا هناك ؟» ، لم ينظر إليه جورج بينما يتناول ملف أبيـض مكتوب عليه من الخارج (نقيب/ سـمير إسـماعيل عبد العزيـز - غرفـة ١٠٥) ، فتحه جورج فى صمت و كأنه لم يسـمع سؤال زميله الذى جلس بدوره أمام جورج و نظره يتناقل فى حيره مـا بين ذلك الملف و بين جورج ، مرت ما يقرب الدقيقة على هذه الحالـة قبل أن يغلق جورج الملف قبل أن يناوله لزميله الذى فتحه

بدوره قبل أن يتساءل:

«أليس هذا سمير ابن أخ العقيد إبراهيم عبد العزيز ؟ حالة الغيبوبة ؟»، أجابه جورج فى حزن:

« بلى هو، و هذا آخر تقرير عن الحالة أعده الطبيب هانز شنايدر أمس»، قرأ الطبيب الآخر التقرير حتى نهايته بينما ترتسم على وجهه علامات الحزن قبل أن يتمتم:

« عام و أربعة أشهر تقريبا، أظنه من الصعب جدا حدوث معجزة، هل من المحتمل أن يفكر العقيد الآن بنقله خارج البلاد؟».

نهض جورج من على كرسيه متجها ناحية النافذة دون أن ينظر إلى زميله الذى يتابعه فى ترقب لجوابه، توقف جورج أمام النافذة و عقد ذراعيه خلف ظهره و قال:

« لقد حسم إبراهيم الأمر و طلب توقيع الأوراق اللازمة لرفع الأجهزة عن سمير ليمنحه الراحة من تلك المعاناة»، صُعق الآخر مما سمع للتو، تعلق لسانه بين شفتيه و لم يتكلم ببنت شفه، إلى أن استدار جورج و نظر نحوه قائلا:

«أنا صديقه منذ الطفولة و على دراية تامة بحجم المعاناة التى عاشتها تلك العائلة منذ وفاة أخوه والد سمير و من بعده والدة سمير بالسرطان، ثم حادث إبراهيم و ما عايشته زوجته معه وأخيرا ذلك الشاب الذى كان ابنه و صديقه، حياة تلك الأسرة مزيج من الألم على الرغم من الدفء الذى كان يعم حياتهم، و على الرغم من كل ذلك صُعقت من رد إبراهيم و ما صعقنى أكثر هو طريقة رده و الفصل فيها، نعم لا محال من ذلك فسمير

ميت و لكن رد إبراهيم كان سريعا و حاد مما أربكنى».

كان جورج يتحرك أثناء حديثه و ذلك الزميل لا ينظر إليه وكأن الصدمة أوقفت عقله و بات كتمثال من الشمع حتى أن جورج شك أنه قد سمع ما قاله للتو، حينها سأله جورج:

«هل تظن أن هناك رد آخر لديه ؟؟؟».

نظر إليه زميله و هو ينهض من على كرسيه متوجها نحوه، ثم قال:

«هذا التقرير و بيان الاجهزة يقول أن الأمر شبة محسوم، لكن هل نقوم بفحص آخير و عملية انعاش ربما تُجدى».

نظر إليه جورج و هو ما زال يفكر فى كلمات إبراهيم، ثم أومى إليه بالموافقة و توجه صوب باب المكتب للمغادرة.

هل ما نحن على وشك فعله صائب؟

هل يجب علي مناقشة إبراهيم فى ذلك القرار؟ على الرغم من فقدان الأمل فى الحالة ؟

عام أربعة أشهر و ذاك الشاب فى ثبات دون أى مؤشر للتحسن، و كل ما اطلع على تقاريره و تابع حالته أقر أنه حتى المعجزة فى تلك الحالة مستحيلة، عائلته لم تشتكى و لو ليوم من تكاليف المشفى و كان هناك أمل لديهم، و لكن ماذا حدث لإبراهيم كى يتخذ ذلك القرار الآن على الرغم من علمه منذ شهر مضى أنه لا أمل و لا حتى بالإعجاز؟

كانت نفسه تحدثه و هو يمشى ببطء فى ذلك الممر، لم يلتفت لأحد و كأنه يسير فى مبنى خال من البشر، و شبح علامة

استفهام يغزو تلابيب عقله يكاد يهتكها دون رحمة فالموقف يحمل الكثير، ما بين أمانته المهنية و ما يمليه عليه ضميره، و بين حُرمه الفعل و هل هو صائب أم لا على الرغم من أنه شائع لكنه يتعرض له للمرة الأولى، و بين كلمات إبراهيم الحادة و هل كان فى وعيه أم هى الصدمة أم إن حالته النفسية من جراء تلك المعاناة التى تصاحبه منذ سنوات قد تلاعبت بعقله و أصبح مشوشا لا يدرك ما الصواب من الخطأ؟

لكنه توقف فجأة ليجد نفسه أمام الغرفة ١٠٥ و لم يكن يعلم هل كان يقصدها منذ البداية أم انها لعبة من ألعاب القدر ولكن فى النهاية لقد قادته ساقاه للمكان المناسب، فتح باب الغرفة و دخل ليجد الممرضة المتابعة لحالة سمير تجلس جواره على كرسى، حين انتبهت لدخوله وقفت و ألقت عليه التحية دون رد منه، لتستقر قدماه أمام سرير سمير الغارق فى ثباته، كانت عيناه تتبادل متابعة الأجهزة المتصلة بسمير دون كلمة، حتى استقرت فى النهاية على وجه النائم، و فى تلك اللحظة قد طرأ فى ذهنه سؤال واحد فقط، هل تعلم كاميليا بقرار إبراهيم؟؟

ظل هذا السؤال عالق برأسه، حينها قرر أن يذهب بنفسه لمقابلتهما و التحدث بالأمر، قبل أن يغادر قائلا بصوت خافت يكاد لا يُسمع:

«فليسامحنا الرب»، وأغلق الباب خلفه ليفتح باب جديد..

بضع ساعات مرت على منزل إبراهيم دون حياة، فقط صوت قناة الأخبار فى غرفته حيث لازال يجلس فيها بمفرده، و نجوى كل ساعة تمر عليه، أما كاميليا فلم تذهب له قط بعد أن ثار عليهما و طلب منهما الخروج من الغرفة.

لم تعتد تلك النبرة فى صوته، نعم فهو يشعر بالكثير من الألم بسبب حالة سمير و لكنها تخشى عليه أيضا و من تفكيره المنفرد تحت ضغط ما يعانيه، لكنها رأت أن تتركه يهدأ قليلا و تناقشه فيما بعد حتى لو كان قد اتخذ قرار، على الرغم من مخاوفها أن يكون قراره ما تفكر فيه.

لقد كان شاردا منذ أمس و اليوم ذكر حلمه بسمير أثناء الليل و كانت تشعر بشئ غريب فى صوته حتى مع إخبارها بما رأى فى حلمه و هى لم تعقب عليه بشئ، كل ما تخشاه الآن هو قراره، هل من الممكن أن يتخذ قرار؟

قطع تفكيرها دقات الساعة معلنة تمام السابعة، توجهت صوب نجوى الجالسة فى غرفة المعيشة و التى كانت تحمل كتاب تقرأ فيه، حينما اقتربت منها كاميليا قائلة:

«هل تناول عقاقيره يا نجوى؟»، نظرت لها و هى تنهض من على الأريكة قائلة:

«نعم سيدتى تناولها بصعوبة دون أن ينطق شىء»، نظرت نجوى إليها ثم أكملت حديثها قائلة:

«شخصان مختلفان تماما يا سيدتى، من رأيته اليوم و ذلك الشخص الذى يكتب تلك الخواطر الرومانسية الهادئة لمن

يحبها ، ربما يحملان نفس الاسم - إبراهيم عبد العزيز - وعلى الرغم مما يعانى منذ سنوات لم أعهده كاليوم».

جلست كاميليا على الأريكة و أشارت لنجوى أن تجلس جوارها حينما قالت:

«حينما تزوجت إبراهيم كان لازال نقيب بالجيش، فى البداية ظننته رجل عسكرى قاسى المشاعر صلب القلب، حتى ذات يوم حضر أمام المنزل و طرق الباب و تخفى على السلم بعد أن وضع لى باقة ورود حمراء و من تحتها ورقة مكتوب عليها لا تفتحى الورقة إلا بعد أن تشمى باقة الورد.» ، اعتدلت نجوى متحمسة لما ستقوله كاميليا التى أحمرت وجنتاها قبل أن تقول:

«نظرت على السلم فلم أجد أحد و لم أكن أتوقع ذلك الشئ منه، فقد كان قليل الكلام مهذب جدا و خجول إلى حد كبير، أو هذا ما كان يظهره». ارتسمت على وجهها ابتسامة عفوية رغم ما تحمله قبل أن تكمل قائلة:

«شممت الورود بالفعل قبل أن أفتح الورقة، ثم قرأت ما فيها و الذى لا زلت أتذكرها حتى الآن، كتب فيها (و لازلت أتسأل كيف احتل اسمك شفتاي ليلة أمس؟ و كيف رفع راية احتلاله لي دون حرب)».

نهضت كاميليا من مكانها و تحركت صوب صورته التى تتوسط حائط غرفة المعيشة، نظرت له قليلا ثم باغتتها الدموع و هى تكمل حديثها فى آى قائلة:

«اليوم و لأول مرة يصرخ فى وجهى».

تسللت الدموع من مرقدها بغزارة، ربما لم تشعر كاميليا بندبها على تلك البشرة الشاحبة الحزينة و التى رسم عليها الألم خارطة طريق من الحزن، لم تحتاج لمرآة حتى تراها و ربما كانت ندبات الروح أشد بروزا و أكثر عمقا.

نهضت نجوى هى الأخرى و توجهت صوب كاميليا واحتضنتها وهى تمسح تلك الدموع عن وجنتيها، قبل أن ترفع كاميليا رأسها قائلة:

«عذابه اليوم ليس لأجل سمير فقط وأن كان هذا هو السبب الأكبر، و لكن معاملته لى هى الأخرى تعذبه لأنها لم تحدث من قبل إلا مرة عند وفاة والدة سمير و ظل يتألم بعدها عدة أيام لأنه صاح فى وجهى».

حاولت نجوى مواستها ببضع كلمات ربما تخفف عنها و لكنها لم تكن تعلم ما يعصف بذهنها، كانت تحمل فوق رأسها جبل من الحزن لو وزعتها على أهل الفرح لسقطوا غما فى بئر الحزن، حتى أنها كانت تتعجب كيف لتلك السيدة أن تتحمل كل هذا.

طلبت نجوى منها الإذن كى تذهب لغرفة إبراهيم قليلا، حيث كاميليا لم تفارق مكانها و لازالت تنظر إلى صورته، لكنها لم تستطع أن تكبح لجام لسانها الذى نطق فى قلق متسائلا:

«ما الذى يدور فى عقلك يا إبراهيم و ما الذى تنوى عليه ؟!»

كررت السؤال عدة مرات و لم يقطع ذاك التكرار إلا صوت

جرس الباب الذى يعلن عن قدوم زائر فى هذا الليل و دون موعد.

توقفت سيارة جورج أمام منزل إبراهيم و بعدما ترجل منها و بدأ يخطو تجاه الباب تذكر أنه لم يتصل ليخبرهم بقدومه، ربما عقله المنزحم بالتساؤلات قد أنساه ذكر ذلك، فأخرج هاتفه المحمول محاولا الاتصال بكاميليا ليخبرها أنه بالخارج، لكن لفت انتباهه شىء، انها كاميليا تقف فى غرفة المعيشة تنظر لصورة زوجها، فحاول الإقتراب من النافذة قليلا حتى سمع صوتها الخافت تتمتم بكلمات لم يفهمها، فاستدار مرة آخرى متوجها صوب باب المنزل فى هدوء، وقبل أن يدق جرس الباب تسائل فى نفسه:

هل تعلم كاميليا بقرار إبراهيم؟

هل أخبرها أن سمير مات إكلينيكيا و عقله توقف عن الاستجابة؟

طالما هو بالخارج فهذه التساؤلات لا جدوى لها و لن يجد جواب شاف، فقرع جرس الباب، قبل أن تفتح له نجوى التى رحبت به وسمحت له بالدخول قبل أن تذهب لتخبر كاميليا بقدومه.

كانت كاميليا قد استدارات ناحية باب غرفة المعيشة منتظرة نجوى لتخبرها من بالباب، لكنها فورا علمها أنه جورج ارتابت قبل أن تقول لنجوى:

«جورج فى هذا الوقت ؟ ودون اتصال؟».

طلبت من نجوى دعوته لغرفة المعيشة واحضار بعض من

القهـوة لهمـا ، لكنها لـم تتمالك نفسـها من الفضـول و توجهت صوب الباب لمقابلته ، حينما باغتته قائلة :

«جورج؟! هل حدث شيء ؟»

ارتبـك جـورج من سـؤالها مـع قدومـه دون خبر ، محـاولا أنا يتلافى خجله قائلاً :

«أعتـذر جدا على الحضور المفاجـئ» ، فدعته للدخول بعدما شـعرت بإرتباكه من تسـاؤلها و أشـارت لنجـوى أن تذهب لتُعد القهـوة ، جلـس جـورج علـى كرسـى مواجهـة لصـورة إبراهيـم وكاميليا على الكرسى المجاور ، تحك كفيها بحركة دائرية نتجت عن توترها و شـعورها ببرد مفاجئ من تلك الزيارة ، فنظر جـورج إلـى حالتها و قد اسـتنتج مما رأى انها لا تعرف شـيء عن قرار زوجها.

اعتدل جورج فى مجلسة و هو يقول:

«أخشـى أن ما سـأقوله سـيزعجك يا كاميليا» ، تزاد ما قاله من حركة يدها و لكنها تجمدت فى انتظار ، قبل أن يُكمل:

«لـن أطيـل عليـك خاصة مـع حالة التوتـر التى تشـعرين بها ، للأسـف لقد تدهورت حالة سـمير و بعد فحـص الخبير الألمانى لحالته أمس كتب تقريره الأخير ، لقد توقف المخ عن الإستجابة يا كاميليا و...».

انعقد لسان جورج فجأة و كأن القط أكل لسانه ، لقد جثت كاميليا لا شـعوريا على ركبتيها أمام جورج الذى نهض مسرعا مع خطوة ناحية اليسار مبتعدا عن كاميليا التى أمسكت طرف

بنطاله و هى فى حالة انهيار تام قائلة:

«أرجـووك أفعـل شـىء أرجـووك لا تتركه يذهـب للموت يا جـورج»، حاول جورج تمالك نفسـه أمام كاميليـا و التى انهارت تمامـا فجلسـت علـى الأرض و هـى تبكى، فهى حتـى لا تعرف بقرار زوجها و ربما كان ذلك فى عقلها و حاولت رفضه و لكنها فى حالة لن تسـاعده فى الحديث مع إبراهيم، لكنه أيقن أنه لا سـبيل فبكل الأحوال سـمير قد مات و لا سـبيل للمعجزات فى هـذه الحالـة، و ربما قرار إبراهيم هو الصحيـح، على الرغم من حالته النفسـية طيلة اليوم ما بين المشـفى و الطريق و التساؤلات التـى خلقـت ثقب فى رأسـه، لقد نسـى أنه طبيـب و حكم على الحالة بعاطفية كونه صديق العائلة و سمير بمثابة ابنه، فحالته قبـل قليل تشـبه حالـة كاميليا الآن و لكن واقـع الأمر يقول أن سمير قد مات لا محالة و لا يجب أن نبالغ فى عذابه

بـات جورج مشوشـا الآن مـا بين تعاطفـه مع الحالـة و ما بين ادراكـه كطبيـب أنـه لا جـدوى، بينما حـاول جورج مسـاعدة كاميليـا على النهـوض؛ اتاه من خلفه صوت، هـو نفس الصوت الذى كان يخشى سماعه على الرغم من أنه قادم كى يسمعه، صوت إبراهيم نفسه قائلا:

«هل أحضرت الأوراق بهذه السرعة ؟»

كان جالـس فـى غرفته حيـن دق جرس البـاب، حين ذهبت نجوى لتعد القهوة ناداها فهبت له مسرعة، و عرف منها أن الطارق كان جـورج، طلب منها اصطحابـه حيث هو، لكنه لم يلاحظ زوجته الجالسـة على الأرض تبكى إلا بعد سـؤاله لجورج، ربما

حتى لم يلاحظها إلا حينما صرخت به و هى على الأرض قائلة:

«أوراق؟ عن أى أوراق تسأل أنت ؟ هل سترسله للموت هكذا؟ ماذا تفعل ماذا تفعل؟!».

هرعت نجوى تحاول أن توقفها على قدميها، نهرتها بدفعة صغيرة و هى تنهض متجهة نحو زوجها، و لكنها توقفت فجأة ثم جثت على ركبتيها أمامه و أمسكت ساعدى الكرسى المتحركبعدما نظرت إليه، لقد كان يبكى و عيناه مشتعلتان حمره، لقد تأكدت أنه لم يكف عن البكاء منذ أن صرخ بوجهها طالبا الإنفراد بنفسه.

سجون الحزن التى فى قلوب الإنسان تملئها العتمة، و كلما سجنا فيها حزن جديد اكتظت حتى امتلئت عن آخرها لتنطلق الدموع من الحناجر، و لكن نهر الدموع هذا كشلال يصعب اعتراضه، طيلة سنوات كتم إبراهيم أحزانه خلف ضلوعه مقيدا إياها بسلاسل اللامبالاة تحت ستار الإبتسامة، و لكنه تعب، فلكل منا طاقة تحمل، ابنه و رفيقه أعلنوا موته و زوجته تنهار أمامه بعد سنوات من العناد مع الألم و هو لم يعد يملك بخزانته أقنعة صبريحاول أن يرتديها، فثار البركان.

مدت كاميليا يدها تمسح عنه دموعه، حينها تكلم إبراهيم باكيا كطفل صغير قائلا:

«انتظرتك طيلة الوقت كى تمسحى تلك الدموع لكنك لم تأتى، لقد شعرت بالبرد داخلى اليوم و لأول مرة»، هنا احتضنته بقوة باكية و هى تقبل وجهه و عينيه، حتى جورج اغرورقت عيناه

مما يرى فقد كان الموقف صعب للغاية و يُبكى الحجر الأصم.

مـرت دقائـق على تلـك الحالة و الجميع يبكـى، إلى أن نطق إبراهيم بصوت خافت قائلا:

«إن لـم تحضـر الأوراق يا جـورج فأرجـوك أرسـلها لكاميليا غدا صباحا كى تنتهى معاناة سمير، لم أعد أتحمل المعاناة و كل ليلة لا يفارق منامى كأنه يطلب الرحمة»، نظرت إليه كاميليا قبل أن تقول:

«إن كان الآمـر كذلـك و قـد مات سـمير لنمنحـه الراحة، وليغفر لنا الله خطايانا».

مسـح جورج دموعـه و تحرك صوب باب الغرفـة دون أن ينظر إليهما، لكنه توقف عند الباب و ظهره لهما قائلا:

«قبل أن أترك المشـفى كنت أفكـر فى كل طريقة تخفف معاناتكم و السبيل لمناقشة هذا القرار مع العلم أنه لا فائدة و لا سـبيل لإحياء ميت، و الآن لا أملك سوى أن أقول ليرقد فى سلام و ليغفر لنا الرب، غدا ستكون الأوراق هنا و بعدها سوف أرسل الأوراق و التصاريح لشئون الضباط العامة للتجهيز للجنازة».

لم ينطق أحد بكلمة بعدها و غادر جورج المنزل، لكنه ترك مـن خلفـه نار تكاد تحـرق قلبين على ولدهما، تلـك المعاناة لم تكـن فقط لفراق سـمير، فقـد أعطى بقراره هـذا إذن الرحمة بموته، لكن ما يحمله عاتق إبراهيم أكبر، فجبال الثلج أيضا تنهار عند الهزات الأرضية، وتستوى بالارض وربما تفيض فتغرق ما حولها، ليختفى الجبل و يصبح نسيا منسيا.

❖ ❖ ❖

رقد سمير فى مثواه الأخير، أخذ معه جزء كبير من روح إبراهيم و ربما مقاومته أيضا، جالسا على كرسيه المتحرك كميت دون قبر، مواجها لقبر الفقيد داخل مدفن العائلة بعدما انصرف الحضور، و لم يبقى معه غير ما تبقى له من جنود رقعته الذين لم يتجاوزا الخمس أفراد، زوجته و طبيبه، ممرضته والأخير كان محاميه و الذى قد أخبره إبراهيم بنفسه بموعد الجنازة طالبا منه الحضور رغبة منه فى الحديث معه.

أسامة البالغ من العمر خمسون عاما صاحب الجسد السمين قصير القامة ذو الوجه الطفولى محام إبراهيم و صديقه و ابن عم زوجته أيضا و الذى يحمل جميع أوراق القضايا الخاصة بإبراهيم و عائلته انتابته الريبة من مكالمة إبراهيم و دعوته على الرغم أن الحضور لم يستوجب دعوة حضور خاصة، و كيف لإبراهيم أن يتذكر ذلك إلا إذا كان هناك أمر ما يود الحديث عنه، ولكن هل يستدعى ذلك الأمر مناقشته فى الجنازة؟..

على يسار إبراهيم كانت كاميليا فى حالة يرثى لها ترافقها نجوى التى حاولت جاهدة تمالك نفسها كى تواسى العائلة ولكنها كانت تفشل بين الحين و الآخر، و لكنها أحاطت كاميليا بين ذراعيها وكأنها أمها التى تخفف عنها الموقف الحزين، عقل كاميليا كان كقاعة سينما تعرض مشاهد لسمير منذ طفولته و مرورا بحياته حتى نهايتها، عرض صامت لفيلم وثائقى موسيقاه التصويرية نحيب، و تبدل التصفيق الحار بقطرات دموع، و حال المتفرج الوحيد - كاميليا - كسجين يعذبوه بزرع خلة أسنان تحت أظافره كى يقول الحقيقة و كان

ثوبها ألم لا ينتهى.

جـورج.. تمثـال لين من لحـم وقف خلف الكرسـى و من مامه يجلـس إبراهيـم ، عيناه لم تفـارق فتحة القبر التـى أغلقوها للتو و كأنهـا يحـاول ثقبها لينظـر إلى ما خلفها ، شـعوره بالحزن لم يقل عن الجميع و لكن يضاف عليه شعور بالتقصير ، حمل على عاتقه القصور فى علاج سـمير ، علـى الرغم من أنه قدم كل ما ينبغـى فعلـه و كأنه ابنـه و لم يبخل بعلمه و عملـه و تجاربه و ما يحمله الطب حتى أنه من طلب اسـتدعاء الخبير الألمانى لمتابعة الحالـة لأنـه توهم فشـله أو تقصيـره ، و كان عقله يـردد كلمة واحدة فى صمت و هى «ليسامحنا الرب عن تلك الخطيئة..».

مشـهد صامـت دون حركـة ربما تسـمع حسـيس الموتى ولا تسـمع للأحيـاء القابعـون أمام القبـر نبض ، وبعد فتـرة تجاوزت نصف الساعة قطعت نجوى الصمت بعدما تحركت صوب جورج قائلة بصوت خافت:

«حالتهما سيئة للغاية و سيدى أظن سيحتاج جلسة تنفس ، هل نصطحبهما للمشفى؟» ، نظر أليها جورج قليلا قبل أن يقول:

«لـن يرضى.. هو ليس هنـا الآن و لا أدرى بما يفكر حتى ، لم يتفـوه بكلمـة منذ الصبـاح ، و لا حتى بالجنـازة و لا الحضور» ، نظر ناحية كاميليا و استكمل حواره:

«هذه المسكينة إلى متى ستصبر؟ جبل قمته هموم و لم تقوى أى عاصفة على زعزعتها ، و حتى الهزات الأرضية ربما تراقصها ولكن العجيب أنها تزداد صلابة بعد هدوء الهزة».

نظرت نجوى نحوها قبل أن تتوجه ناحيتها ممسكة بكفيها وقالت:

«سيدتى أنت منهكة جدا و لم تتناولى حتى الماء منذ أمس، و لم تذق عيناك طعم النوم ولو لبرهة، هل أحضر لك بعض الماء من السيارة؟»، أشارت لها بيدها بالنفى بحركة واهنة، و نظرت كاميليا إلى إبراهيم الذى لم ينطق و لا حتى أشاح بصره عن القبر لحظة، لفت ذلك نظر أسامة الذى تحرك صوبها قبل أن يسألها فى هدوء:

«هل أنت بخير؟»، فأشارت برأسها بالنفى و نظرت صوب زوجها، قبل أن يقول أسامة:

«هناك أمر ما لديه، فأنا أدرى أن اتصاله بى أمس ليس لحضور الجنازة فقط و لكن هناك ما سيقوله.»، لم تلتفت كاميليا مسبقا لذلك أو إنها لم تلحظه قبل تفوه أسامه به، نعم فهذه ليست عادة إبراهيم، و حين إنشغالها بالتفكير والصمت يقتل الموتى بالجوار تحدث إبراهيم أخيرا قائلا:

«نحن آخر من تبقى، آخر أفراد الجنازة، آخر أفراد العائلة، كل من تبقى لي الآن، أظنه الوقت المناسب كى أتحدث إليكم جميعا بشأن ما قررته» هذه الجملة لم تكن عادية فقد حملت داخلها انطباع بالخوف لدى الجميع ربما تفاوت قدره لدى كل فرد منهم حسب قربه من إبرهيم، لكن الخوف سيطر على الصمت و تمنى كل منهم ألا ينطق أو ينطق بسرعة كى يرتاح الجميع بالعلم، لكنها لحظات و كان هذا الخوف قنبلة انفجرت فى وجه الأحياء واقشعرت جثث الموتى المحيطة بهم

من هول ما سمعوا منه، بعد أن قال مخاطبا أسامه:

«ربما تتعجب يا أسامه من سبب اتصالي بك والجميع يتساءل الآن ما هو الأمر الذى أريدكم فيه، لقد اخترت هذا المكان لأنه سيكون البداية و سيكون النهاية أيضا، أريدك أن تتقدم بطلب للمحكمة الدستورية للنظر فى قانون القتل الرحيم و طلب إلتماس بقبول توقيع القتل الرحيم علي».

حدد بداية نهايته وحدد مكانها و رسم طريقه نحو السفر الذى لا عودة منه، لقد خارت قواه واستسلم و يريد الانتحار ولكن بموت رحيم..

الفصل الثالث

«علينا أن نسرع يا علاء، الوقت ينفذ».

نظر الشاب المدعو علاء إلى العقيد الجالس جواره حيث كان يقود سيارة «جيب» عسكرية بسرعة كبيرة فى طريقهم إلى فندق «هيلتون طابا»، حيث قال فى حزم:

«لا تقلق سيدى العقيد سوف نلحق المجموعة قبل الوقت»، وانطلقا مسرعين و كأن السيارة تلتهم الطريق، نظر العقيد فى ساعته التى كانت تشير إلى التاسعة والنصف ثم إلى الطريق الخالى تماما فى مثل هذه الساعة، و على ملامحه علامات القلق الشديد.

كان الوقت يتسارع و كأن له قلب ينبض بسرعة بعد إفراز كمية لا بأس بها من الأدرينالين، و كأن الثانية أصبحت نصفها، والليل ازداد سوادًا حتى مع ضوء مصابيح السيارة كانا لا يبصرا شىء، فمنذ أن انطلقت السيارة من القيادة للحاق بأفراد المجموعة المتجهة صوب فندق «هيلتون طابا» بعد إخبارية بإحتمالية وقوع عمل إرهابى هناك لم يتوقفا لحظة و ربما كانا يودا إيقاف الساعة أو الإمساك بالبندول، و ربما لو لديهما قوة خارقة تمكنهما من الوصول للموقع فى لحظة الإخبارية كتلك القوة التى يمتلكها عفريت المصباح.

نظر العقيد إلى عداد السرعة أمام السائق علاء قبل أن يقول له:

«هل نسير ببطئ أم يخيل لي ذلك؟!، كم تبقى من الوقت لنصل؟»، لم ينظر إليه السائق و لكنه أجاب فى سرعة:

«أقل من خمسة دقائق يا سيدى العقيد»، نظر بعدها العقيد فى ساعته اليدوية ثم إلى الطريق مرة آخرى، حيث ظهرت أمامه فى تلك اللحظة بعض الأضواء التى تعلن عن وصولهما للمكان تقريبا، كان يبدو كل شىء هادئ و لا يوجد شىء، قبل أن يطلب العقيد من السائق أن يسرع وسط توتر السائق الذى يكاد يطير بالسيارة و لا يدرى ماذا يفعل أكثر من ذلك.

كلما اقتربت الأضواء زاد توتر العقيد، كان يشعر بمزيج من غريب داخل رأسه، يود الوصول مسرعا للحاق بالمجموعة والتى لا يدرى حتى إن كانت وصلت أم لا، و شعور آخر ببعض القلق من الوقت و من صحة المعلومة عن هذا الإنفجار، حتى أصبحت المسافة ما بين السيارة والفندق أقل من مائتى متر أو أقل قليلا، فى تلك اللحظة برزت سيارة مسرعة فى اتجاه واجهة الفندق و ما هى إلا لحظات وانفجرت السيارة انفجارا سمع صوته ساكنى جوف الأرض حتى، تبدلت الأمور كثيرا ما بين حالة الليل الأسود إلى ليل مضئ بالنيران فى كل مكان و أصوات الصراخ تتعالى، وسط ذهول العقيد والسائق والذى حاول تقليل سرعته دون قصد، و لكنه لم ينظر إلى الطريق حيث توجه نظره صوب الفندق، هنا برزت سيارة مسرعة عكس إتجاه السير فى مقابلة الجيب العسكرية، لم يستطع السائق الشاب تدارك الموقف، و بحركة غريزية أدار مقود السيارة بسرعة محولا تغيير اتجاهه صوب اليمين فى نفس اللحظة التى اتجهت السيارة المعاكسة

صوب اليسار ليحدث التصادم الحاد ، لتنقلب السيارة عدة مرات و تسقط على رأسها فى منخفض على جانب الطريق و تستقر.

لـم يكن هناك من يلاحظ هـذه الحادثة ما بين السـيارتين ، انتباه الجميع كان صوب الفندق ، وسط الصراخ و لهيب النيران مـع دوى الانفجـارات ، و بعـد فتـرة حاولت قوات الدفـاع المدنى وسـيارات الإسعاف السـيطرة على الموقف ، كان هناك العديد مـن الضحايـا فـى النطـاق ، و لكـن السـيارة كانـت بمـكان منخفض و لم يلحظها أحد.

بعد مرور ساعتين و يزيد قليلا انتبهت احدى سيارات الإسعاف لجانب الطريق حيث خيط من الدخان ، و سرعان ما طلبت الدعم لموقـع الدخـان ليجـدوا سـيارتان أحدهمـا فى الأعلـى والأخرى فى الأسـفل على رأسـها ، هرع رجال الإسـعاف للسـيارة العلوية و حاولوا إخراج سائقها و بعد الفحص تبين لهم أنه قد فارق الحياة ، وبعدهـا توجهوا إلي الأخرى فورا و قاموا بإخراج السـائق والعقيد أيضا اللذان كانا على قيد الحياة و لكن بحالة خطرة.

دقائـق و وصلت سـيارة الإسـعاف التى كانت تحمل السـائق والعقيـد إلى المشـفى ، فـورا توجه الأطبـاء إلى غرفـة الطوارئ لفحص المصابان ، بعد قليل خرج الطبيب من الغرفة و معه بعض من متعلقات المصابين ، حيث وقف أمام إحدى الممرضات والتى كانت تُمسك تقريرا فى يدها و قال:

«جندى/ علاء محمد السيد ، ١٩ عام ، مسلم ، محل الإقامة..... ، توفى السـاعة الثانية عشـر صباح يوم الثامن مـن أكتوبر ٢٠٠٤» ، ونظر بعدها للهوية الأخرى قبل أن تسأله الممرضة:

«و مـاذا عـن الآخـر؟»، أجابهـا فى حزن:» سـيتم نقلـه لغرفة العمليـات، هنـاك شـك فى إصابتـه بإرتجاج بالمـخ و ربما بعض الكسور و نزيف داخلى»، نظر إلى الهوية مرة آخرى و قال لها:

«أسـرعوا بتجهيز غرفة العمليات واتصلوا بالقيادة، المصاب العقيد/ إبراهيم عبد العزيز، قوات مسلحة».

❖ ❖ ❖

يقول شوبنهاور:

«إن المعانـاة هـى بجـلاء المصيـر الحقيقى للإنسـان، يتعين النظـر إلى الموت باعتباره الهدف الحقيقى للحياة لأنه فى لحظة المـوت فـإن كل مـا تقرر حول مسـار الحيـاة بأسـرها ليس إلا إعدادًا ومقدمة فحسب، والكفاح إلى تجلى فى الحياة على نحو عابث وعقيم و متناقض مع ذاته تعد العودة من رحابه خلاصًا» اليـأس..

طريـق معتم مـا إن دخله الإنسـان مجرد من أسـلحة الأمل تاه فيه حتـى الموت، لحظة انعدام المقاومة والإستسـلام للغرق فى بحـره البارد القاتـل، و إن زاد الوصف لن يكفـى لحالة إبراهيم فـى تلك اللحظـات، الذى يرى الحياة الآن مجـرد عالم مظلم ولا يتعـدى مجموعـة قريبة داخـل منزل دونمـا تغيير طيلة السـنوات المنصرمة، فأتخذ قرار الموت

كان بالجنازة و لم يكن هناك، ترك روحه مُعلقة على شماعة غرفته مع خروج كاميليا ذاك اليوم بعد أن نهرها، كانت لحظة انهيار كيان حارب العجز طيلة أحد عشر عاما وبعد ما قاله لهم

سمع الجميع صوت ارتطام ذاك الكيان بالأرض ليُحْدث دوى هائل إبتلع معه الأحياء منهم والأموات ألسنتهم.

مر القليل من الوقت بعد أن ساد الصمت، لم يستطع أحدهم استيعاب ما قاله إبراهيم، لكن فجأة نطق مرة آخرى حين قال:

«انها ليست مزحة و أنتم لازلتم أحياء و كذلك أنا لا أتحدث إلى الموتى، هل يعنى ذلك أن حالة الصمت تلك هى بمثابة الموافقة و أنكم معى بهذا الطريق ؟»، تحرك أسامة ناحية القبر دون أن ينظر إليه و هم بإشعال سيجارة ثم قال:

«هل تظن أن ما تطلب واقعى؟ هل نسيت أنك بمجتمع شرقى و مسلم؟ ما تفكر به مرفوض فى أغلب دول العالم الغربى حتى الآن و يرفضه القانون، كيف تفكر بهذا و ماذا عن زوجتك؟ ربما علي أن أقدر حالتك النفسية الآن بعد موت سمير و إلا كان ردي عليك غير ذلك».

عقب جورج بعصبية على ما قاله أسامة قائلا:

«حتى الطب و منظمات حقوق الإنسان فى أغلب دول العالم لا تسمح بذلك إلا فى حالات ضيقة و لا....» قبل أن يكمل الكلمة قال إبراهيم فى عصبية «و ماذا فعلتم أنتم بسمير يا بروفسير جورج؟ أليس هذا أحد حالات موت الرحمة التى تقول عنها غير مسموحة؟ لماذا سمحتم بها أو سمح بها الطب عموما؟ أجبنى»، بُهت جورج مما سمع حيث لم يكن لديه شىء يقوله فى ذلك فهو محق تماما، فقد حبس الكلمات فى حلقه، و هطلت كلماته على رأس جورج كأنها غيث لا يتوقف فشعر ببلل روحه المجروحة مما قال، فهو

لازال يشعر بالتقصير و كأنه قاتل سمير.

تخلى إبراهيم عن النظر للقبر أخيرًا، لكن عيناه لم تقترب صوب كاميليا فربما كان يهرب من تلك المواجهة و ربما كان تأخره فى الإفصاح عن هذا القرار هو موقفها تجاه هذا القرار وردة فعلها، فكيف له الآن النظر إليها، لقد شاركته المعاناة منذ اليوم الأول و تحملت ما لا يقدر عليه الكثير، لم تكل و لم تمل و لم تتفوه بكلمة أف حتى، دائمة الابتسامة رغم ما تخفيه ستائر عينها من ألم.

تقدمت نجوى فى تلك اللحظة لتخطف نظر إبراهيم بما فعلته، فقد جثت على ركبتيها تتوسل لإبراهيم قائلة:

«بالله عليك لا تفعل، نعلم جيدًا حجم المعاناة التى تمر بها بعد سمير، لكن يبقى الأحياء أحياء والأموات فى رحمة الخالق أرجووك يا سيدى لا تفعـ.....»، صرخ بها قائلا» أنا لست من الأموات و مجرد عدد على لائحة الأحياء و من خلقنى تركنى أعانى كل تلك المعاناة فلماذا يفعل بى هذا»، صرخ به جورج فجأة قائلا» فليسامحك الرب على ما تقول.. ليسامحك الرب»، و ترك الكرسى متجها صوب باب المدفن معلنًا فراره من تلك المعركة النقاشية والتى يظن نفسه أضعف جنودها، قبل أن يصرخ به أسامة قائلا:

«لا تخرج من هنا يا جورج فما نحن بصدده بدأ هنا و يجب أن ينتهى هنا فلا تترك مكانك»، قالها بلهجة صارمة أشبة بأمر جعلت جورج يتصلب مكانه دونما حركة، و أسامة ينظر لكاميليا التى ظهر عليها الإعياء الشديد و لكن العجيب أنها لا

تبكى ولا تتكلم ولا تنظر حتى لزوجها ، مما أثار عجب أسامة و لكنه لم ينطق ، اكتفى فقط بالنظر قبل أن يتجه صوب إبراهيم ليساعد نجوى على النهوض و يمسك وجه القعيد ناظرًا فى عينيه لبضع ثوان ثم قال:

«ما تفعله خاطئ ، هذا القرار خاطئ ولن يساعدك عليه أحد منا و لن يتقبله أيضا غيرنا ، و قبل كل هذا كن واقعيًا وانظر إلى زوجتك المكلومة الآن».

فجأة نظر إبراهيم تجاه جورج و هم بسأله:

«قل لي يا جورج ، يا طبيبي طيلة هذه الرحلة ، هل هناك بالطب شىء يمكنه شفائي ، هل من الممكن أن يكتشف الأطباء شىء يساعدنى على الحركة من جديد؟ هل من الممكن أن تستبدل رئتاي بجديدة؟ جورج هل هناك أمل و لو شعاع خافت؟» انتظر جوابه حيث جورج و كأنه إبتلع لسانه أو تجمدت الحروف فى حلقه ، فنظر إليه قبل أن يقول:

«بالطبع لا ، لقد نسيت أنني سألتك عن هذا منذ عدة أيام ، أظن كانت المرة الألف التى أسألك فيها عن بصيص أمل بعيدًا عن تصفح الأخبار و بحث كاميليا المسكينة كل يوم بالأخبار الطبية عن جديد و لكن.. لماذ أنتظر إذن».

صرخ به أسامة قائلا:

«إنك تكفر بالذى وهبك تلك الحياة و تحاول أن تبدو واقعيا و لكنك بعيد كل البعد عن هذا ، استيقظ من ألمك فأنت تتحدث عن الموت يا هذاو هذه أخر كلماتي لك قب...»

تفاجئ أسـامة بردة فعل إبراهيـم الذى انفجر ضاحكًا حيث قال:

«لأجيـب عليك ما بـدأت به محاضرتك الجميلة، تسـألنى عن الواقعية يا أسـامة؟ و هل ما أنا به الان واقعى ؟ فليذهب مجتمعك الشـرقى للجحيم بما فعله لي طيلة الاحدى عشـرة عامًا الماضية يـا هـذا، أمـا ما يرفضـه العالم اليـوم يقره بعـد أيام أو أشـهر أو حتى سـنوات و إلـى ذلك الحين هل وجب علـي الإنتظار على ذلك الكرسى اللعين؟ هل وجب علي أن أتحمل تلك المعاناة؟ إلى متى سأشعر بالخجل حتى من زوجتى التى تبدل لي ثيابى كل يوم عدة مرات لأننى قضيت حاجتى دون أن أشعر؟ هل مجتمعك و واقعيتك سوف تساعدنى فى تبديل ثيابى إن ذهبت كاميليا أيضا؟».

مـا ختـم به حواره كان مدويا، مـاذا إن غابت كاميليا حقا؟ وكل منهم له حياته و هو بالفعل وحيد بعد سمير و سيكون بلا أحـد بدون زوجته إن تركته أو اختارهـا الموت، ربما لم يفكر أحدهـم بذلـك قط، و من سـيجيبه بأنه بجانبه فـى تلك اللحظة سـيكون جوابه مجرد تهدئة أو كلمات ملونة ستتلاشـى مع أول موجة حارة تعصف بالقعيد، لا مفر ؟!!

هنـا نظـر الجميع عدا هو صوب كاميليا السـاكنة الملامح العاصفـة الروح والتى شـعر بما تحمله حتـى الموتى، و لكن فى اللحظة التى كان يجب عليها أن تنطق بالقول الفصل؛ حدث أمر آخر.. لقد انهارت كاميليا.. سقطت مغشيا عليها.

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع

يمر الوقت ببطء جدًا بساحات الإنتظار، تتسارع التساؤلات والإجتهادات داخل عنق الروح الضيق جدا فى تلك اللحظة كإزدحام ممر مستشفى وحيد للطوارئ والإسعافات داخل ساحة حرب..

حال عقله البائس فى تلك اللحظة و ما يراوده، ما الذى أصابها؟ هل كان ذلك من الصدمة؟ هل كان من الإرهاق والحزن؟ هل هناك شىء تخفيه عني؟...

حتى وصل لسؤال آخير.. و مرهق جدا:

«هل ستتركني كاميليا و تذهب هى الأخرى؟»

لم ينتبه أن هذا السؤال تحديدا انطلق عبر شفتاه بصوت عال عن ما سبقه، و ربما كان السؤال الوحيد المنطوق حيث لم يستمع أحد لأى سؤال قبله، مما لفت انتباه أسامة الواقف إلى جواره تحديدًا، فى حين كان جورج و نجوى داخل غرفة الكشف مع كاميليا. لكن وقع السؤال كان على قلب أسامة غريب قليلًا، ربما شعر بجحم المعاناة التى تدور خلف صدر هذا الرجل، نبرة الصوت، التساؤل، التفكير فى جواب هذا السؤال تبدو مرعبة لحامل العبء، إبراهيم يصارع الغرق فقط بطوق نجاة اسمه كاميليا، فماذا لو أفلت هذا الطوق يده؟ هنا جلس أسامة على الكرسى المقابل لإبراهيم الغارق فى تفكيره، ينظر إليه

بشفقة قبل أن ينطق قائلًا:

«الآن فقط شعرت بما تحمل، و كامل الحق معك فلن يشعر بالنار أكثر هو حاملها، ما تمر به طيلة هذه السنوات هو ما يجعلك تفكر و تتحدث بهذه الطريقة»، قام أسامة من مقعده متجها صوب غرفة كاميليا على بُعد خطوتين من إبراهيم، وأكمل حديثه قائلا:

«أعلم جيدا أنها كل شيء لك، و أشعر بالضربات العنيفة داخل صدرك، كاميليا قوية و ستكون بخير، إنها تعانى بعض الإرهاق و بعد قليل ستكون هنا معك، لكن لا أدرى كيف ستعاقبك بعد ما قلته فى الجنازة، ربما لن تتحدث معك قليلا حتى تهدأ».

إلتفت صوب إبراهيم بعد جملته الأخيرة التى ظن أنها تخفف قليلا من الأجواء، لكنه تفاجئ بشئ آخر، لقد كان يبكى، دموعه كالغيث دون صوت، و كأن إبراهيم لم يستمع لحديثه قط، كأنه غارق فى بحر الحزن أو جالس خلف حائط الألم وحيدًا فى تلك النقطة، انحنى أسامة واضعًا يده على كتف إبراهيم قبل أن يقول:

«أعتذر إن كان ما قلته للتو أبكاك، لم أقصد شيء سوى أن تطمئن قليلًا، لا تترك روحك رهي....»، قاطعه إبراهيم بتكرار سؤاله الأخير، والذى صعقه و بشدة بطريقة إلقاء السؤال هذه المرة، لقد إكتشف أسامة أن إبراهيم لم يسمعه فعلا، وزلزل فؤاده تلك الطريقة التى نظر بها إبراهيم صوبه ثم صوب الغرفة و هو يتسائل هل ستتركه كاميليا هى الأخرى؟، لقد تجمد

أسامة وتمنى أن يفعل شيء، أو يختفى من كل شيء..

لم يشعرا بالوقت فى حين راح كل منهما فى التفكير فى صمت، و لم يدركا حتى ما الذى يدور خلف ذلك الباب المغلق وكم مر عليها بداخلها، قطع عليهما تلك الحالة خروج نجوى من الغرفة والتى بدأ على ملامحها القلق و لكنها حاولت بكل ما تملك أن تخفيه عن إبراهيم الذى كان يشتم رائحته خلف قناع نجوى الشاحب، اقتربت منه نجوى قبل أن يسألها قائلا:

«هل عادت للوعى؟»

جلست على المقعد المجاور له قبل أن تقول:

«لا ليس بعد، فهى غارقة فى غيبوبة و مؤشراتها تدل على انخفاض فى ضغط الدم نتيجة الإرهاق و قلة النوم، و لازال الوقت مبكرا لتحديد ان كان هناك أى عرض عصبى أو لا، لكن جورج يقول ربما كان ذلك نوبة عصبية نتيجة الصدمة سيدى».

لم يكن الجواب كاف لإبرهيم، لن يطمئن إلا برؤيتها أو بالنظر إليها من بعيد حتى، فطلب من نجوى أن تصطحبه لغرفتها و لكنها قالت أن الطبيب أخرجها هى الأخرى كى يوقعوا الكشف و عمل الأشعة و يجب أن تنال قسط من الراحة، لكن هذا الجواب زاد من حدة تصرفات إبراهيم الناجمة عن قلقه، فما كان منه إلا أن صرخ فجأة مناديا على جورج عدة مرات، فتوجه أسامة صوبه مباشرًا محاولا تهدئته لكن دون جدوى، لم يكتفى بذلك لكنه أيضا صرخ ينادى عليها.. نعم

لقد صرخ باسم كاميليا طالبا منها الخروج من الغرفة فى موقف أدمع أعين الحضور، قبل أن يُفتح باب الغرفة ليظهر جورج مسرعا صوب إبراهيم قائلا:

«ماذا تفعل يا إبراهيم؟ اهدأ قليلا أرجوك نحن بالمشفى».

نظر إليه إبراهيم و هى يبكى قائلا له:

«هل ستتركنى كاميليا أيضا يا جورج؟ هل ستفعلها يا نجوى؟ أسامة بالله عليك أخبرها ألا تذهب، أنا من يريد الموت ليس هى، أنا...»، جثا جورج على ركبتيه ناظرًا إليه قائلا:

«و من قال أنها ستتركك، ما تمر به كاميليا شىء طبيعى نتيجة الإرهاق والتعب و كذلك ربما تكون فى حالة صدمة مما سمعت، هل تظن أن ما أخبرتنا به سهل أن تتحمله؟ ضع نفسك بمحلها و هى تقول لك قررت أن أموت، و لما تضع نفسك صحيح؛ فلتنظر لحالك الآن و أنت تظنها ستتركك وحدك، أنت أيضا قررت أن تتخلى عنها يا إبراهيم بدون أن ترجع لها».

صاح به إبراهيم قائلاً:

«أنا لو ميت هى سوف تعيش، نعم ستعيش فى حزن و تنتحب غيابي أعلم ذلك جيدا، لكنها قادرة على أن تتعايش مع الذكرى و تخدم نفسها، لكن أنا بدونها ماذا أفعل يا هذا؟ لا تسأل عن شىء لا تدركه أرجوووك».

بُهت جورج مما سمع، ولا يدرى كيف يهدئ من حالته، ربما هى كاميليا وحدها من يستطيع ذلك، الموقف يزداد صعوبة مع إبراهيم و كل ما يخشاه الجميع الآن هو رد فعل كاميليا بعد

خروجهـا مـن تلك الغرفـة ، و بعد أن غرق كل شـخص منهم فى تسـاؤلات عن الموقـف ، إلا جورج الذى ذهب بعيـدًا عن إبراهيم دون أن يلتفـت لـه أحـد ، و لا يشـعر بمـا داخله أحـد ، لقد كان يشعر تماما بإبراهيم ، لكنه أيضا يحمل ما يتعبه..

هل هوالذنب؟ أم الخوف؟ أم الشفقة؟ أم هناك ما لا يعلمه أحد بداخله؟

هنـا قرر جورج الهرب من مواجهة إبراهيم مرة آخرى ، ليدخل تلك الغرفة حينما صرخ إبراهيم بإسـمه لكنه لم يلتفت ، و ربما لم يسمع..

❖ ❖ ❖

غفا إبراهيم لا إراديا على الرغم من بحيرة الدموع التى تحيط شـواطئ عينيه ، ربما إستسـلما أو جذبهما التعـب لرحلة قصيرة فى مدينة البؤساء ، لم يلاحظ أسامة و لا نجوى ذلك ، فقد هدأت الأجواء نسبيا لمن يرى المشهد من بعيد ، لكن لا يعلم المتابعين عن بُعد أى رياح تعصف بأرواح هؤلاء.

ما هى إلا دقائق حتى لاحظت نجوى غفوة إبراهيم والتى قامت نحوه لتفحصه ، باغتها أسامة بحركة سريعة ليوقفها ، ثم جذبها نحوه قائلا :

«اتركيه الآن يهدأ قليلا ، ما يمر به من الصعب تحمله ، دعيه فـى غفوته حتى نرى وضع كاميليا.» ، تحركت نجوى فى هدوء مطيعـة لما طلبه أسـامة ، و طلبت منه الإبتعـاد قليلا عن إبراهيم بحركة توحى أنها تود الحديث معه بعيدًا حتى لا يسمعهما أحد ،

فتحرك أسامة بضع خطوات للخلف و لحقته نجوى التى قالت:

«وضع سيدى سيئ للغاية، و لم نفحصه اليوم و لم يأخذ عقاقيره حتى الآن، يجب أن نستدعى طبيب كى يفحصه»، نظر أسامة نحو إبراهيم والشفقة تطل من على أعتاب عينيه و نورهما يكاد يختفى، كان يتسأل حقا هل إبراهيم يحتاج لفحص أم لكاميليا؟ فهو أكثر الحضور علما بقصة حبهما و حجم المعاناة التى زادت من ذاك الحب، لكنه استطرد فى حزن:

«إبراهيم لا يحتاج لعقاقير، إنه يحتاجها، أنت على دراية تامة أن كل تلك الأدوية لا شىء مقابل كاميليا، دعينا نتركه يستريح قليلا حتى يخرج جورج و نرى حال كاميليا أولا».

لكنه تذكر شىء، لقد كانت نجوى بالداخل و ربما تعرف شىء عن حالتها، فباغتها سائلًا:

«نجوى.. ماذا قال الأطباء عن حالة كاميليا»، نظرت إليه فى حزن قائلة:

«حالة الإغماء لم تكن عادية، لقد توقفت أجهزتها الحيوية لبضع ثوان بعدها، و قد لاحظ جورج ذلك و هذا ما يقلقه، لكن حتى الآن لا يوجد شىء فقد طلب الطبيب إجراء أشعة و بعض التحاليل لكن بعد أن تستعيد وعيها» كان جوابها يحمل الكثير من الإستفهام لأسامة، فهو يكاد يجعل معنى ذلك و كل ما وصل إليه أن هناك شكوك فى حالتها على الرغم من أن الأطباء بعد التشخيص المبدئ ألمحوا

أن الحالة مجرد توتر و أرهاق، و لكن هناك شك فى نوبة عصبية؟ هل هذا ما تعنيه؟

قبل أن يفتح أسامه فاه بالسؤال عما تعنى، خرج عليهما جورج قائلا:

«لقد استعادت وعيها و هى فى حالة جيدة الآن، و سألت عن إبراهيم فور استعادتها وعيها»، كان أسامة قد توجه بالفعل تجاه غرفتها كى يطمئن عليها، وجدها ممدة على السرير فى حالة منهكة و عيناها معلقة صوب الباب تبحث عنه كأم بكماء تبحث عن طفلها وسط حطام مدرسة إنهارت بعد زلزال، نظرة تملؤها القلق مغلفة بالتعب، اقترب منها أسامة قبل أن يقول:

«كيف حالك الآن ؟؟» أشارت له أنها بخير فلم تكن تقدر على الكلام، و ربما كان همها فى هذه اللحظة غير ذلك، لقد انشغلت على إبراهيم، حين كانت عيناها لازالت تبحث عنه عند الباب، توجه أسامة صوب الطبيب يسأله:

«هل هى بخير الآن؟»، نظر الطبيب نحوها مجيبا:

«هى بخير الآن إلا من بعض الإرهاق و هبوط بالدورة الدموية نتيجة لقلة الطعام والنوم، لكن بعد الإنتهاء من هذه المحاليل ستكون بخير، و على الرغم من ذلك لن أجيبكم بجواب قطعى فهى تحتاج لبعض الفحوصت والتحاليل و نحتاجها فى أقرب وقت كى نقرر أسباب هذه الحالة»، باغته أسامة سائلًا فى لهفة:

«هل هناك شك فى شىء ؟» نظر له الطبيب قليلا قبل أن يقول:

«لهذا طلبنا الفحوصات كى نعرف ما الوضع، لكن لا داعى

للقلق فالأمور بخير».

قبل أن يرد عليه أسامة تفاجئ الجميع بصوت نجوى و هى تنطق عاليا بإسم إبراهيم، مما جعل أسامة ينظر صوب الباب مباشرة و تجمد المشهد عند تلك النظرة، فصوت نجوى لم يكن طبيعيا.. أبدًا.

❖ ❖ ❖

خرج جورج من باب الغرفة ليخبرهم أن كاميليا قد استعادت وعيها، توجهت نجوى فورا صوب إبراهيم والذى لم يشعر بشئ مما يدور حوله فربما كان لازال غارقًا فى غفوته، ما إن اقتربت منه نجوى حتى باغتها جورج قائلا:

«انتظرى قليلا، سنخبره أنها بخير.. فقط، لا داعى أن نقلقه الآن بما طلبه الأطباء من تحاليل و فحوصات، فأنا على دراية بما سوف يفعل»، أشارت له نجوى بإشارة إيجابية، و فور ما وصلت عند إبراهيم، حاولت إيقاظه، و لكن اختل توازن إبراهيم من على الكرسى المتحرك دون أن يستيقظ ليسقط أرضًا دون حراك، هنا نطقت نجوى بإسمه لا إراديا من صدمة ما حدث فهرع إليها جورج ليفحص إبراهيم محاولا رفعه من على الأرض، و بعد ثوان خرج أسامة بصحبة الطبيب ليجتمعوا عند مصدر الصوت.

لقد كان مغشيا عليه تقريبا، حينها أشار جورج لأحد الممرضات أن تحضر سريرا متحركا كى يضعوه عليه، وفور ما حضر السرير كانت كاميليا استجمعت قواها و غادرت غرفتها لتشاهد هذا الموقف مما دفعها أن تصرخ صرخة عالية

فى حدود قوتها الحالية فى لحظة ضعف منادية عليه.

أسرع الطبيب لفحصه و هو يشير لهم بإصطحابه للغرفة المجاورة، حاولت كاميليا المشى معهم كى تتطمئن عليه، لكن كانت فى حالة دوار شديد و رأسها كأنه يشهد معركة بالقنابل بين جيشين يرفضان الهدنة، لاحظها أسامة و هى تحاول التحرك والذى أسرع إليها محاولا مساعدتها، إلا أن جورج كان أسرع منه والذى وصل إليها ممسكا يدها قائلا:

«لا تغادرى غرفتك يا كاميليا، جسدك لازال منهك و تحتاجين للكثير من الراحة، لا تخافى فهى حالة إغماء عادية من الإرهاق و سيكون بخير»، نظرت إليه كاميليا و كأنها تقول له هل هو حقا بخير ؟؟ قبل أن يمسكها أسامة من يدها الأخرى كى يصطحبها لغرفتها، إنصاعت لرغبتهما و عيناها لازالت معلقة على إبراهيم حيث يصطحبه الممرضون والطبيب مرورا من أمام غرفتها لغرفة مجاورة، و هنا استأذنهما جورج ليذهب معهم.

و ما إن وصل جورج للغرفة كان الطبيب يجرى الفحوصات على إبراهيم، ثمنظر إلى جورج قائلا:

«حالة إغماء و هبوط بالدورة الدموية، سنعطيه القليل من المحاليل لكن لن يغادر المشفى اليوم، يجب أن يبقى قليلا حتى يستعيد قواه»، حرك جورج رأسمه بعلامة التَّفْهُم لما قال الطبيب ثم غادر متجها صوب كاميليا كى يخبرها، التى لازالت واقفة معلقة الأعين على الباب، و فور أن رأت جورج حاولت المشى صوبه لكنه أسرع الخطى متوجها نحوها قائلًا:

«لا تقلقـى انه بخير جدا ، إغماء و أمر الطبيب له براحة الليلة هنـا تحت الملاحظـة ، هيا أنت أيضـا عليك أن تنالى قسـط من الراحة» ، ثم تركهما متوجها صوب غرفة الأطباء.

دخلت كاميليا غرفتها مع أسـامة و برفقتها أحد الممرضات والتى سـاعدتها فى العودة لفراشـها ، اقترب منها أسـامة محاولا تهدأت الوضع قائلا :

«لقد كان قلقًا جدًا عليك و لم يأكل أو يشرب شىء ، لقد فقد وعيه نتيجة ذلك لا أكثر ، لا تخافى إنه بخير.. إنه إبراهيم» ، لم ترد على ما قاله و لم تنظر إليه حتى فقد كانت عيناها لازالت معلقتان عند باب الغرفة ، حيث بدأت سـحابة شتوية تمطر فوق عينيها دون وعيها ، مد أسـامة أصابعه بتردد محاولا مسح تلك الدموع من على وجنتيها ، لكنها انتبهت لأصابعه فأزاحتها برفق وهى تقول:

«قرر الموت.. هل تعرف ماذا يعنى ذلك؟ لم يُخلق بعد من نجح فى إقناعه بالعدول عن قرار قد حسـمه حتى و لو كان لحظة غضب ، لكن هذه المرة القرار ليس له وحده ، إنها حياتى أنا أيضا ، لم يعد لى أحد سواه فماذا لو تر...» ، قاطعها أسامة قائلا بحنان:

«لا أحـد؟! و هـل غبـت أنا أيضـا؟ هنـاك أحد أفـراد عائلتك لازال هنا جوارك ، و ذلك لا يعنى أننى مع قرارهو لكن سـأفعل ما أسـتطيع كى أوقف ذلـك على الرغم من أن المسـألة قانونيا محسومة بالرفض».

قاطعته بقولها :

«نعم أنت أخر من تبقى لي من عائلتى و لكن إبراهيم هو كل

مـا أملك، هل تظن أنه لو تركنى و أفلت يد الدنيا أنه بإمكانى العـودة لتلـك الحياة؟!، هنـاك الكثير والكثيـر جدا لا يمكن البـوح بـه، ربما أنـت محق فى إسـتحالة الأمـر قانونيـا و لكنه سيسـعى عليه، سـيقاتل من أجلـه، ألم ترى إبراهيـم و هو يقاتل مرضه طيلة الإحدى عشرة عام المنصرمة؟ ألم ترى إبراهيم ذلك الرجل العسـكرى قبل أن يسـقط من على جواده؟ هل نسيت من هو إبراهيم و ماذا يفعل من أجل شىء يريده؟ أظن أنك أكثر من يعلم ذلك».

هنا نهض أسـامة من جوارها بعد ما سمع، أشاح وجهه صوب البـاب هـو الآخـر و تحـرك خطوتيـن لتقف قدمـاه و يبـدأ عقله بالمشـى لسنوات مضت، عودة سـريعة لشريط حياته لأكثر من خمسـة و عشـرون عاما عند نقطة البداية، يفتح دفاتره على تلك النقطـة التى تثبت أن إبراهيم يقاتل من أجل من يحب، يسـترجع ذكريات تلك البقعة الخفية، فهو يعلم تمامًا كم هذا الإبراهيم يفعل ما يريد، و يقاتل من أجل ما يريد.. و يفوز.

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

هناك لحظات فاصلة فى حياة كل إنسان، يحاول من خلالها إثبات نفسه، و إثبات أحقيته فيما يحب، لحظات يجب عليه أن يقاتل، هنا يختلف إنسان عن آخر، من يرى ما بداخله حلم ومن يرى ما بداخله هدف، ربما كان الحلم هو نطفة الهدف، ربما كان الحلم هو أول طريق لما يصبو المرء، و لكن إن لم يعمل الإنسان على تحويل حلمه لهدف؛ سيبقى حلم قابل للتبخر والتخلى.

هذا ما يجعل هناك فرق ما بين الحالم والهادف، لم يكن أسامة إلا حالما يرغب فى امتلاك الشىء، و لم يعمل لأجله أو لتحقيقه، على عكس إبراهيم الذى أخذ من نفس الشئ هدف له، حتى حققه و فاز به فى نهاية المطاف.

التفت أسامة صوب كاميليا و هو ينظر لها فى هدوء قائلا:

«على الرغم من ما يحدث و ما سوف تقولى الآن إلا أن هناك حقيقة أظنها واضحة كالشمس»، تردد قليلا و عيناه تراوغ عينا كاميليا الواقفة أمامه مباشرة، كان هناك ما يثقل لسانه، أو ربما أكله القط، و لكن الأكيد أن كاميليا كانت تنظر له و هى لا ترى هذه الحقيقة التى يقول عنها واضحة كالشمس، فقالت له:

«أخبرنى يا أسامة عما تتحدث، الطريقة التى بدأت بها حديثك أربكتنى كثيرًا، لم أعتد عليك يا أخى الوحيد أن تخفى علىّ

شـيء فى صدرك، ربما تقصد تلك الحقيقة؟!»، كانت مراوغة مـن كاميليـا تحاول مـن خلالها فك طلاسـم لسـانه، و بالفعل نجحت فى ذلك بعدما صدمت كلماتها أسـامة فكان لا سـبيل أمامه إلا الإعتراف، والذى صُعِقت له كاميليا حينما قال:

«هـل هذه الحقيقـة الوحيدة التى أمامك؟ ألم يصلك حتى هذه اللحظـة أن مـن تلقبيه بأخ وحيـد يحمل لك بقلبه مـا يزيد و جدا عـن أخت، نعـم فهذا الواقـف أمامـك الآن يحبك حـد الجنون». سـاد الصمـت قليلًا.. حاولـت كاميليا اسـتيعاب ما قـال، و هو حـاول أن يلملـم كلماته اسـتعدادا لردها القـادم، لكن زاد من ارتباكها ما فعلت، لقد نظرت له و ضحكت بصوت عال و هى تُقَلِب كفًا على كف، حتى استشاط غضبًا من ردة فعلها فصاح قائلًا:

«مـاذا حـدث لتضحكـى بـكل تلـك السـخرية؟»، انتبهـت فـى هذه اللحظـة أنها جرحت شـعوره بلامبالاتهـا و ضحكاتها العاليـة والتـى تـدل علـى تصـرف فـظ جـدا، خفضـت عيناهـا و هـى تحـاول مسـح بعـض دمـوع سـالت مـن طـرف عيناها من فـرط الضحـك، قبـل أت تلملـم بعـض مـن نفسـها و قالـت: «سـامحنى لم أقصـد التقليل مما قلت و لا جرح مشـاعرك أبدًا، لكن ما قلته الآن كان نوعًا ما صادما و ربما أربكنى و أدهشنى أيضا»، لم يفهم من تلك الكلمات شـيء فهى تشبه الماء لا طعم و لا رائحة، تركها تهدأ من توابع نوبة الضحك والتى لاحت على محياهـا رغـم أنها حاولـت قمعها ببعـض من مسـاحيق الجدية، تحركـت بضع خطوات صـوب النافذة حيث بقى أسـامة خلفها

يترقب، كانت تحاول ترتيب أوراقها حيث يبدو الرد مقنعها، فما سمعته مربك، عاشا سويا سنوات طويلة جدا و هى تلقبه بأخى، تفصح له عن كل ما يحدث بحياتها و هو لا يخفى عليها سرًا حتى نزواته مع زميلاته تعرفها، لكنها لم تكن تحسب لذلك الموقف حتى بأبعد أحلامها، استدارت كاميليا تنظر فى عيناه مباشرًا قبل أن تقول:

«لم أتخيل ذات يوم أن نفس الشخص الذى ألقبه أخى و أتقاسم معه تفاصيل حياتى من الممكن أن يحبنى، ما أضحكنى هو دهشتى لا سخريتى»، توجه أسامة ناحيتها و عيناه تتمايل كأنها صرح عال على وشك السقوط فى بئر جفنيه و تختفى، للحظات شعر أنه تسرع فى ذلك و أنه وجب عليه الحفاظ على ما بداخله، لكن لو حدث ذلك؛ ستكون من نصيب شخص آخر و بالفعل هناك من يحاول و ربما بالفعل إقترب، تمالك نفسه فى حزم قائلا:

«ألا يحق لي؟.. ستقولين نعم لا يحق! لكن و ماذا فعل بذلك القلب الذى حمل لك كل هذا و ما باليد حيلة فى ذلك، كيف...»، قاطعته فى لهجة شبة صارمة حينما قالت:

«أسامة.. لماذا الآن؟ لماذا لم تبح بذلك من قبل؟ تأخرت فى ذلك جدا و جدا، و حتى لو لم تتأخر صدقنى أنا أراك أخى وأفضل أن يبقى ذلك، أرجووك لا تصعب الأمور على كلينا»، كانت ردة فعله بعد كلماتها حادة، فقد أمسك ذراعيها بقوة و هو يصرخ قائلا:

«كيف ذلك و متى؟ لقد انتظرت كل هذا الوقت و أنا إلى جوارك ومنعت كل من حاول المرور إليك حفاظًا على ما لي، نعم

فأنت لي و لـ...»، جذبت ذراعيها من بين يديه بقوة و هى تحاول دفعه عنها، ربما كان سر قوتها هو صدمتها من انفعاله فهى لم تحسن تدارك ما يشعر به حقا، لكنها واجهته بقوة فقالت:

«انها ليست ملكية خاصة كسيارتك أو أحد ثيابك الفاخرة، أنت تتحدث عن إنسان، لا يحق لك قول هذا إلا إذا كان ذلك بدافع الغيرة و حب التملك، لكن سأخبرك شيء واحد..».

كانت كلماتها قوية عنيدة لم يعهدها من قبل فى كلماتها الناعمة، حاول تدارك الأمر لكن لن يجدى ذلك فقد خرجت الرصاصة من فوهة البندقية و أصابت هدف خاطئ و عليه الآن تحمل تبعات ذلك، حاول الإقتراب منها ليهدئ من ثورتها لكنها وقبل أن تكمل كلماتها أشارت له فى حزم بالتوقف و قالت:

«علىّ أن أخبرك أن الأمر أنتهى فأنا مع إبراهيم، لن يغير ما قلت الآن من شيء، إلا أمر واحد، فى حال رفضك هذا سأعلن اليوم الحداد على فراق أخى الوحيد.. و إلى الأبد».

انطلقت هاربة من الموقف تاركة ذلك الحريق يأكل من أشعله، و قد كان فعلًا، كلماتها كانت بألسنة النار حرقت الأخضر واليابس حيث لا حول له و لا قوة غير أنه فى لحظة غضب بعدما غابت عن ناظريه قال:

«لم تتركى لى الفرصة كى أكمل ما كنت أقول».

«أسامة.. أسامة ما بك يا رجل؟».

لقد كان صوت جورج عاد كى يطمئن على كاميليا والتى خلدت للنوم بعد ما حقنتها الممرضة ببعض المنوم كى ترتاح

قليلا ، و يبدو أن جورج كان يحاول لفت انتباهه منذ فترة ولكن أسامة لم يجب.. لقد كان غارق فى الماضى عند نقطة لا ينساها.. نعم لا ينساها أبدا!!!.

❖ ❖ ❖

أشرق صباح جديد يحمل عبق المطر، والنسائم الباردة تداعب الأجساد فى خجل، حتى تلك المشتعلة بالحزن أو بالقلق قد لمستها البرودة عن عمد، حتى خلف الأبواب المغلقة وصلت تلك النسمات إلى كاميليا التى لازالت غارقة فى ثباتها من التعب والعقاقير المنومة، لكنها استفاقت و ما هى إلا لحظات حتى رفعت رأسها من على الوسادة تبحث عنه، لم تكن تتذكر ما حدث فلازال عقلها تحت تأثير المنوم و سرعان ما إستعادت ما حدث واعتدلت فى جلستها ببطء، ثم تناولت زر الجرس الكهربائى تطلب الممرضة المناوبة، ما هى إلا بضع ثوان حتى دخلت عليها المناوبة على وجهها ابتسامة خفيفة و بدأت بفحص كاميليا فى هدوء، ما إن انتهت حتى سألتها كاميليا:

«أريد أن أطمئن على زوجي- العقيد/ إبراهيم عبد العزيز- هل أستطيع الذهاب لغرفته؟»،

قبل أن تجيبها الممرضة ظهرت نجوى على الباب تستأذن بالدخول فسمحت لها، باغتتها كاميليا بسؤالها عنه، فجاوبتها أنه بخير لكنه لازال نائمًا، لكنها أصرت على الذهاب لتراه، وبالفعل ذهبت إليه و جلست إلى جواره فى حين كانت نجوى تقف خلفها، و بصوت متهالك طلبت من نجوى أن تتركها معه

قليلا ، فأستجابت و تركت الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

ربما لم يصادفك يومًا شخص عزيز حتى و إن كان صديق اختاره الله بالابتلاء على شكل مرض خبيث لا مهرب منه ومن نهايته الحتمية بالموت، حتى و لو كان ذلك الشخص لم تجمعك به علاقة قوية أو أحاديث عميقة طويلة ، فالشعور بقرب نهاية هذا الشخص لا توصف، لا مواساة فى الموت، كل نظرة من عينك تجاه ذلك الشخص تكاد تستحلف القدر أن يبقى أو يجعل الله من بعد أمره أمرًا.

هذا النائم المستسلم يكتب نهايته بإرادته، بعدما كان يناطح اليأس على سفح جبل؛ صرعه اليأس ليسقط بهوة لا قرار لها نحو النهاية، أن تصاب بمرض عضال لا نجاة منه أو تختار أن تنهى تلك المعاناة بإرادتك نفس الشىء.. فى النهاية موت.

ليس لدينا الحق فى الانتحار حيث تحريمه دينيا و تجريمه قانونيا لو أفلت المنتحر من براثن الموت، لكنه حاول أن يموت بطلب الحق فى القتل الرحيم، حتى مع تحريمه شرعًا و تجريمه قانونا هو الآخر بموجب الدين والدستور، محاولات ليجعل من انتحاره بعد هروبه يبدو أكثر اقناعا و أقل ذنب، يحاول البحث عن طريقة تجعل الموت يبدو ملجأ له و لا يتحمل تبعات موته المنشود.

حاولت كاميليا أن تتكلم لكن عَلِق لسانها خلف شفتاها و كأن الألم سَجَن الحروف خلف قضبانه، كانت تنظر إليه نظرة لا يصفها حرف، لكن يمكنك أن تعرفها جيدًا إن عشت هذا الشعور مع عزيز، و خلف هذا الصراع المرير هربت الدموع

مـن محجرها دون شـعور ، و كأن الحـروف انصهرت و تصاعد بخارها ليرتطم بعيناها فأمطرت ألم.

تمالكت نفسها قبل أن تقول له:

«لمـاذا...؟ تحملنـا كل هـذه السـنوات سـويا و لم يقـع علينا شـيء لم نتبادل همـه و كذلك عبرنا ذلك الطريـق يد بيد ، الآن تهـرب؟» ، اقتربـت منه وجهه أكثر و هى تضـع يدها على جبينه تمسح عليه برفق كعادتها كل صباح، ثم أكملت:

«لـو لا أعرفـك حـق المعرفـة لأكتفيـت بقـول اذهـب أيهـا الجبـان، لكن أنا و أنت شـخص واحـد و خير من يعرف قوتك، لماذا تستسلم الآن.. لماذاااا؟».

حاولـت أن توقـف فيضان دموعها دون جدوى فمسـحت بيدها وجنتيهـا ثم نظرت لأعلـى قليلا تحاول أن تصطاد بعض من الهواء ربما يقلل من الاشتعال داخلها ، دون جدوى فعادت تنظر إليه قائلة:

«هـل فكـرت بي؟ من لـي دونك بالحيـاة يا زوجـي؟ أنا يتيمة بدونك، وحده وجودك ما يشـعرنى بالحياة، وحدها كلماتك ما تجعلنـى على قيد أمل، ما الحياة من دونك يا زوجى؟ انهض و قل ما الحياة يا إبراهيم».

فتـح جورج باب الغرفة فوجدها بالداخـل، فنظر إليها قبل أن يُلقـى عليهـا تحية الصباح اسـتوقفه حديثها معه، فهى لم تشـعر بالبـاب و لـم ترى جورج أيضا ، إنهما بعالم غير العالم و لا يُسـمح للضيـوف بإقتحامـه، لكـن جـورج لا يعتبـر حاله مـن الضيوف فتقـدم صوبهـا و هـى لا زالت غارقة فـى تفكيرها و لـم تنتبه،

وقبل أن يصل إليها بخطوة، صاحت كاميليا فجأة قائلة:

«لماذا لا ترد علي؟ أنت تسمع كل ما أقول فكف عن الهرب و واجهني، كف عن الهرب و إلا..»، ذُهل جورج من انفعالها فلقد تغيرت نبرة صوتها فى لحظة من حزن وانكسار إلى ثورة وانفعال، لكنها اكملت بصوتها المنكسر مرة آخرى قائلة:

«و إلا ماذا يا كاميليا؟ هل ستعاقبيه على عدم رضه؟ هل ستحرميه من وجودك؟ لن تفعلي شيء يا كاميليا فأنت أضعف من رد فعل معه»، واستسلمت للبكاء و بصوت عال، هنا أسرع جورج يمسكها فهى كانت على وشك السقوط من على الكرسى، فاستندت على كتفه و هى تنظر له قائلة:

«انه يسمعني يا جورج، إبراهيم يسمعنى صدقنى و يهرب من الرد، باللّه عليك ماذا سيقول الآن و هل يرجع عن قرار عن اتخذه فى حياته قط؟ كيف سأتحمل قراره هذا؟»

ربت جورج على كتفها فى هدوء قائلا:

«لا تفكري فى هذا الآن فما يطلب لن يحدث، هذا الشئ محرم شرعا فى كل الديانات و مُجَرَم قانونا و غير مسموح به و سيقابل بالرفض التام فلا تحزنى، دعيه يستيقظ و بعدها نتحدث إليه، لكن أرجوووك عليك بالهدوء»

نظرت إليه و كأن كلامه فتح لها بارقة أمل، فنهضت من مكانها ثم نظرت إليه قائلة:

«نعم نعم أنت طبيب و تعرف جيدًا، جورج باللّه عليك، بحق ما عايشناه سنوات، بحق الأخوة قل لي، لا مجال لحدوثه و بعدها

قل له ذلك فهو يسمعنا ، نعم يسمعنا أخبره بالله عليك»

إنها منهارة كليا ، كلماتها ، نظراتها ، انفعالاتها كلها لشخص بصدمة كبيرة ، يهذى و يتخبط من الخوف ، حاولت جورج أن يجاريها الحديث و يطمئنها قائلًا :

«نعم.. يسمعنا و يعرف جيدًا أننا لن نسمح له ، أتركيه الآن حتى يتمالك نفسه ثم لنا حديث آخر ، والأن تعالى معي إلى غرفتك لتستريحي و نطمئن عليك» ، أمسك جورج بيدها يرشدها للباب فعيناها عالقة عنده لم تفارقه ، لكنها تحركت فى استسلام مع جورج حتى خرجت من الغرفة و أغلق الباب ليصطحبها إلى غرفتها.

جسد يتحرك لا إراديا تشبه كثيرًا الآليين ، يقودها جورج و هى لازالت تنظر إلى الباب حتى عادت غرفتها دون شعور بما يحدث أو أين هى ، و كأنها ترى ما لا يراه غيرها ، أو تركت بصرها هناك و تحاول أن تسترجع عيناها من غرفته ، جثة بلا روح.

ما إن وصلت غرفتها حتى دخل الطبيب يطمئن عليها ، فأخبره جورج بما حدث فرد عليه أنها تحتاج لبعض المهدئ فهى تحت تأثير صدمة عصبية ، لكن سوف يقوم بفحصها و عمل التحاليل أولا ثم يعطيها بعض المهدئات كى تخلد للنوم.

و بالفعل قام الطبيب بفحصها و سحب بعض عينات الدم منها دون أى شعور ، ثم أعطاها عقار مهدئ و ما هى إلا دقائق حتى عادت للنوم ، و كأن ما حدث كان مجرد حلم.

❖ ❖ ❖

الفصل السادس

خرج جورج من غرفة كاميليا بصحبة الطبيب، لازال ما سمعه من كاميليا عالق بذهنه، والأكثر ألما كان بكاؤها الحار، يشبه كثيرا قطرات من شمع سائل تتساقط فى راحة اليد و كم هى مؤلمة، لكنه توقف فجأة عند ما قاله لها، ما يطلبه زوجها صعب جدا بدرجة المستحيل، لكن هذا الرجل هل سيقف عند الرفض؟ اليوم الكرة فى ملعب أسامة و ربما بعد نفاذ فرصة فى تحقيق مطلب إبراهيم سوف يلجأ لشخص آخر يساعده على ذلك، هل سيطلب منه المساعدة فى قتل نفسه؟ لم يشعر بنفسه حينما نطق بصوت عال قائلا:

«مستحيل... لن أفعل.. لن أفعل يا إبراهيم»

إلتفت الطبيب إليه بعد ما سمع سائلا جورج:

«ماذا قلت يا جورج؟»، لم ينتبه لسؤاله حيث كان و لا زال عالق فى عاصفة لا يدرى إلى أين ستقذفه، عاد الطبيب إليه ممسكا يده و هو يسأله:

«جورج.. هل أنت على ما يرام؟ لماذا أنت شاحب هكذا؟»، قبل أن ينطق جورج ورده اتصال هاتفى.

«صباح الخير يا أسامة، كيف حالك اليوم؟»، أجابه أسامة:

«صباح الخير جورج، أنا بخير، هل أنت بالمشفى؟» أجابه جورج بنعم قبل أن يسأله أسامة إن كان هناك جديد فأخبره

جورج أن الوضع كما هو، قال له أسامة:

«حسنا.. أريد أن أتحدث معك و أنا فى طريقي إليكم الآن، فضلا انتظرني»، قبل أن يستفهم جورج عما يريد أسامة كان قد أغلق الاتصال، و ترك جورج فى حيرة آخرى، لكنه انتبه أن الطبيب لازال واقفا و ممسكا بيده اليسرى، فأعتذر له جورج عن هفوته فقد كان يفكر ببعض الأمور، فسأله الطبيب:

«ماذا هناك؟ هل ثمة ما تخبرني به؟ حالتك منذ أمس لا تروق لي فضلا عن شحوب وجهك وانفصالك عن العالم بالتفكير أغلب الوقت»، نظر جورج صوب غرفة إبراهيم ثم تحرك مع الطبيب صوب مكتبه دون أن يجيب، دخلا سويا الغرفة ثم أشار لزميله أن يجلس، لكنه عاد لصمته مرة آخرى لكن هذه المرة و هو يتأمل نافذة غرفته و قطرات المطر التى تغسل زجاجها، ثم نطق فى صوت مهزوز:

«إبراهيم عبد العزيز يريد أن يتقدم بطلب للمحكمة الدستورية بتعديل مواد الدستور و قبول القتل الرحيم»، صُعق الطبيب مما سمع فصرخ لا إراديا:

«ماذا؟...»

لم ينظر إليه جورج على الرغم من نبرة صوت زميله، الأفكار التى تعصف به أقوى بكثير من الإلتفات لذهول أيا كان، استطرد جورج حديثه قائلًا:

«لقد أخبرنا بذلك أمس بعد دفن ابن أخيه»، اعاد جورج ظهره للخلف دون أن يغير وجهة عينيه مكملا:

«كنا بالمدرسة الإعدادية، و فى يوم من أيام الصيف كنا نلعب الكرة بالشارع المجاور لبيته، و فجأة طاحت الكرة بعيدًا عنا ثم جاء شاب و خطف الكرة ثم جرى بها و أختفى قبل أن نتحرك قيد أنملة، كان أول من تحرك هو إبراهيم، أذكر جيدا ما قاله يومها، لقد أقسم بوالديه أنه لن يرجع بيته إلا والكرة معه، و بالفعل غاب ما يقرب الساعتين.. لكنه عاد بها فعلا».

نهض جورج من على الكرسى و أستدار حول المكتب فى بطئ و زميله ينظر إليه، ثم استقر جورج أمام زميله مباشرة و هو ينظر لعينيه ثم قال بنبرة عالية:

«هذا الإبراهيم لا يتراجع، أنا أكثر من يعرفه و عايش كل ذلك معه، عناده، صلابته، حتى مرضه الذى يقاتله منذ سنوات، لا يتراجع»، نهض زميله من على الكرسى قبل أن يقول:

«هل تدرك ما يطلب؟ لن أقول لك تجريمه و تحريمه فنحن لسنا منصة قانون و كل منا على دين على الرغم من أن كلا الديانتين يمنعا ذلك و تحرمه، لكن نحن أطباء، من منا يُخل بالقسم و يسلب روح مريض؟ بالنسبة لي أنا.. لا أفعل»

لم يرد جورج على ما قال فهناك خلف تلك الكلمات كان خوفه من طلب إبراهيم، و هناك أيضا شعوره بالذنب فى موت سمير، انه أضعف من مواجهة ابراهيم العنيد والجريح، قبل أن يكملا حديثهما سمعا صوت الباب معلنا عن شخص يستأذن بالدخول فسمح له جورج، لقد كان أسامة والذى رحب بهما ثم سأل الطبيب عن حالة كاميليا فأخبره الطبيب بالحالة ثم

استاذن من جورج كى يكمل مروره على المرضى.

جلس أسامة فى هدوء تبعه جورج، باغته جورج سائلًا:

«ماذا هناك يا أسامة؟ لقد شعرت بالقلق من طلبك لقائي»، أشعل أسامة سيجارة فى هدوء دون أن ينظر لجورج ثم قال له:

«أريد ملف حالة إبراهيم الصحية منذ الحادث حتى اليوم مع تقرير من المشفى أن حالة إبراهيم لا أمل فيها لعلاج»، صُعق جورج من طلبه، لم يكن يتوقع الأمر بهذه السرعة حتى دون أن يناقشوا الأمر مع إبراهيم، ما قاله أسامة يشبه كثيرا ضربة عصا على ظهر الكف بصباح بارد، فصاح جورج:

«أطفئ هذه السيجارة فالتدخين ممنوع بالمكتب»، نظر إليه أسامة بحنق و هو يسحب أنفاس سيجارته ثم نظر إلى السيجارة و ألقى بها تحت قدميه وهو يقول:

«ما سر هذه العصبية يا جورج؟ هل كان طلبي صاعقا لهذا الحد؟».

نظر جورج له بعد فعله الفظ و زاد من غضبه هدوء أسامة فى الرد، قبل أن يرد عليه بعصبية زائدة:

«كيف لك بهذا الطلب دون أن نناقش الأمر مع كاميليا؟ نحن لم نكمل حديثنا مع إبراهيم عن هذا الأمر الصعب!!»، نهض أسامة متجها صوب النافذة ثم توقف عاقدا ذراعيه على صدره بنفس الهدوء الذى يثير حفيظة جورج، و قبل أن يتكلم نهض جورج من مقعده متجها صوب أسامة فجذبه من كتفه بحركة دائرية إستدار بها أسامة الذى رفع حاجبيه من فعل

جورج الذى قال:

«مـن أنت يا هذا؟ ما سـر هذه اللامبـالاة الغريبة؟ هل أنت من عايـش معنـا هذه المعانـاة و لو من بعيـد؟ ما ال..»، دفعه أسـامة بهدوء بعيدًا عنه قائلا:

«بل ما الذى تخفيه أنت؟ ما سـر هذه العصبية والهجوم؟ و لما العجب.. أنت جورج الملاك الخائف، جورج الذى يحمل فوق عنقه موت سمير دون سبب، جورج الذى يخشى مواجهة إبراهيم والذى طالما كان كذلك».

بُهت جورج من هجوم أسامة الحاد عليه بما قال و كأنه كان يكشف ما خلف صدر جورج، اكتفى بالنظر لأسامة الذى أخذ يتحرك بالغرفة و نظره عالق عليه، تابع أسامة حديثه قائلا:

«أنا لا أقل عنك اهتماما و لا تنسـى أن كاميليا من تبقى لي، و سـيكون ردة فعلهـا أقـوى بكثير من مجرد أطفئ سـيجارتك فالتدخين ممنوع سيدى الطبيب، لكن سأمضى بهذا و أفتح هذا الملـف حتى يقف إبراهيم عند حده و يكتفـى من ديكتاتوريته الزائفـة و ينتبـه أن لكاميليا حق فى القـرار»، جلس جورج على كرسيه متابعا لأسامة الذى أكمل:

«لـو لـم نفعل ذلك سـيلجأ لغيرنـا، الصواب هو أن نسـير معه بهـذا الطريق حتى يطل لبابه الموصـد، و بعدها حتى و إن حاول ألـف ألف مرة لن يُقبل طلبه بواسـطتي أو بواسـطة أقوى محاميّ القانون المصرى».

توجه أسامة صوب الكرسى ثم جلس حينما رد عليه جورج قائلا:

«مـاذا لو كان طلبه من تأثير حزنه على ابن أخيه و سـيزول، مـاذا لـو كان بحاجـة للدعـم منا، أنـت تنظر للأمر مـن عندك فقـط، مـا الذى سـيفعله إبراهيم بعد الرفض وانعـدام الأمل فى القض..»، قاطعه أسامة بنبرة باردة كالثلج قائلا:

«سـيتصل بـك ويطلـب منك أن تسـاعده علـى انهـاء حياته»، جحظـت عينا جورج مما قاله، فقـد كان أكثر مخاوفه فعلا، قبل أن يكمل أسامة:

«لهـذا أنت متوتر و عصبى، و لا يهمنى سـبب خوفك والمبالغ فيـه من طلـب إبراهيم حيث يكفيك الـرد بالرفض»، هنا نهض أسامة من مكانه متجها صوب الباب فى طريقه للخروج، و دون أن ينظر لجورج قال له:

«سـيطلب منـك إبراهيـم هـذا الملـف بنفسـه فأحـرص على اسـتكماله فى أسـرع وقت»، فتح الباب واسـتدار ليواجه جورج ثم استطرد فى هدوء:

«بالمناسـبة.. لا دخل لك فى موت سـمير، من قتل سـمير هو إبراهيم نفسه»..

وأغلق الباب معلنا ذهابه.

«كاميليا!!..»

كان اسمها أول ما نطق به أول ما استعاد وعيه، منهك تماما غيـر قـادر على فتح عينيه، ربما حتى لا يدرك أين هو أو كم من الوقـت مـر عليه و هـو فى غياب عن الوعى، كل ما شـعر به أنه

لأول مرة طيلة تلك المعاناة يستيقظ دون أن توقظه، فكان ردة فعله هو أن ينادى عليها.

أخذ يكرر اسمها بصوت واهن يعلو مرة بعد مرة دون أن يجيبه أحد، لكنه فجأة صرخ بصوت عال:

«كاميليا!!!!!!!!!!!!»..

شعوره بفقدانها ما زال يفتك بعقله، فور ما تمالك نفسه تذكر ما حدث و كيف لشعور غيابها وقع مخيف عليه، فجأة فتحت نجوى الباب و هى تجرى صوبه قائلة:

«سيدى.. سيدى اهدئ انها بخير فى غرفتها»، صرخ مرة آخرى قائلا:

«أريد أن أراها والآن، الآآآآآآآآن»

ظهر الطبيب و معه ممرضة اتجها صوب إبراهيم محاولا تهدئته هو الآخر دون جدوى، فقال له الطبيب:

«اهدئ أرجوك دعنى أطمئن على صحتك و لا تخف فزوجتك بصحة جيدة جدا»، لم يستمع له و أكمل صراخه قبل أن تقول له نجوى:

«لن يهدئ حتى يذهب هناك، أرجوك دعنى اصطحبه حتى غرفتها كى يطمئن و بعدها نجرى الفحص سيدى»، أشار لها الطبيب بالموافقة وطلبت من الممرضة أن تساعدها فى وضعه على الكرسى المتحرك، وبالفعل توجها صوب غرفة كاميليا والتى لازالت غارقة فى نومها، فأخبره الطبيب أنها تعرضت لصدمة عصبية و هى تحت تأثير المنوم.

استقر إبراهيم جوار كاميليا ، كان الطبيب يشرح له عما حدث و أنها بخير لكنه لم ينظر و لم يعقب بشئ ، لقد كان فى عالم آخر ، لكنه فجأة نظر للطبيب والذى لازال يشرح له ثم قال:

«أريد أن أبقى معها بمفردي» ، نظر الطبيب إلى نجوى والتى انسحبت بدورها من خلف الكرسى و بصحبة الطبيب و معاونته غادروا الغرفة و أغلقوا الباب خلفهم.

حينما يضغط اليأس على عنق الإنسان و يسحبه ناحية الموت ، تتبدل نظراته لكل شىء حوله ، إلا تلك النقطة التى لازالت حية داخله ، تلك النقطة التى تنهش روحه بمخالبها والتى تُعلن أنه لازال إنسان ، مهما بلغ من الحياة فهو ضعيف عند شىء ما ، إنها النقطة ذاتها التى ما إن تخطاها و كسر حاجزها فلن يبالى بشئ ، لن يمنعه شىء بالحياة من تقدمه نحو إزهاق روحه وبمنتهى اللامبالاة.

تلك النقطة هى كاميليا ، الخيط الرفيع الذى يفصله عن النهاية ، الخيط الذى يربطه بقدم الحياة ، لا يستطيع تجاوزها ويخاف من أن تتجاوزه هى لا إراديا ، لكن عند موت سمير اختل توازنه من على الخيط ، فهو الآن يترنح و بشدة يصارع الفراغ فلا يجد ما يتمسك به و لا يستطيع النظر لأسفل ، حتى حانت تلك اللحظة التى لا مهرب منها .. الإستسلام للهاوية

ساد الصمت طويلًا فى الغرفة عدا صوت زخات المطر التى تدق النوافذ على استحياء ، تنهد إبراهيم بصعوبة و قرر أن يبدأ الحديث أخيرًا حينما قال:

«لـم أتنـاول إفطـارى حتـى الآن، لم يحضـر لي أحد منشـفة ليمسح وجهي»، شعر و كأن الكلمات وقفت فى حلقه و تكاد تخنقه فنظر لأعلى و هو يتنهد مرة أخرى ثم قال:

«و ثيابـي كمـا هـى و أظـن أنها اتسـخت، و لـم يحضر أحد ليطمئـن علـي و يداعب شـعري، لكـن الأكثر إيلامـا فى هذا الصباح هو شىء آخر»، نظر إليها مرة آخرى و على وجهه إبتسامة سـاخرة علـى الرغم من انكسـاره الـذى ملئ صوتـه الحزين ثم استكمل قائلا:

«لم أسمع صوتك حتى الآن يا كاميليا، لم أسمع صوتك الذى يضخ الدم بصدرى»، زاد المطر و زاد صوت ارتطام زخات المطر بالزجاج و كأن السـماء شـعرت بحجم تلك المعاناة التى يحملها و كـم كانت تلك الكلمات مؤثرة حتى أن عيناه فاضت بالدمع و دون أن يشعر.

إلـى أين سـتذهب و أنـت مُحَمَّل بـكل هذه المعانـاة؟ و كم مـن الوقت تسـتطيع الصمود حـاف القدمين على صفيح سـاخن مُكبَّل.. مُكَمَّم؟ لن تجد غير الصراخ من أعماقك بما لن يسمعه غيرك، ولن تستطيع على هذا الألم صبرًا، فملاذك الوحيد كى تشعر بأنك إنسان هو أن تبكى.

نظـر إلـى قدميه العاجزتين برؤية شـبه معدومـة من الدموع، قبل أن يتكلم والبكاء يكسو كلماته و بصوت عال قائلًا:

«لـم أتحمل صباحـا واحدا يا كاميليا ولهـذا أريد أن أذهب، دموعي لا أسـتطيع أن أجففها و لا أستطيع النهوض لأقترب منك

أشم رائحتك، و عاجز عن لمسك حتى، لقد انهار إبراهيم تماما يا كاميليا و يحتاج منك تذكرة العبور، لن أتحمل صباحا آخر بدونك، أستحلفك بالله أفلتى يدي، أستحلفك بالله دعينى أذهب.. أرجووووكِ»

لم يستطع أن ينطق بكلمة بعدها فقد غرقت الحروف بسيل الدموع ورفع يديه عكس إتجاه الريح ليقع فى الهاوية، لقد استسلم تمامًا لكنه عالق عندها، فقط ينتظر منها ما لن تستطع عليه.

لم يستطع رفه رأسمه مرة آخرى كى ينظر لها، و حتى إن استطاع فكيف والدموع تحجب الرؤية، لقد اكتفى برؤيتها بقلبه، وامتزج صوت البكاء بصوتها العالق فى ذاكرته، لكنه انهار تماما و أصابه التعب و يتنفس بصعوبة بالغة، فى تلك اللحظة و دون أن يشعر دخلت احدى الممرضات الغرفة دون أن تدرى بوجوده، و ما أن شاهدت ذلك ركضت مسرعة لإحضار الطبيب، لكن قبل أن تصل شاهدها جورج و هى تخرج مسرعة من غرفة كاميليا فتملكه القلق، فركض بسرعة و ما أن وصل حتى وجد إبراهيم و حالته تلك فصرخ:

«ماهذا يا إبراهيم؟ ماذا تفعل بنفسك؟»، فحص نبضه و حاول رفع رأسه فوجد سيل الدموع، وسط محاولت إبراهيم التحدث لكن جورج لم يستطع تمييز ما يقول إلا كلمة» اتركني معها»، دخلت نجوى هى الأخرى مسرعة لتجد جورج يسحب إبراهيم لغرفته لمحاولة إسعافه بالتنفس الصناعى، لقد كانت رؤيتها لدموع إبراهيم صادمة فهى المرة الأولى، توقفت مكانها دونما

حركة، حتى غادر الجميع و هى لازالت فى مكانها كتمثال.

استدارت نجوى صوب كاميليا قائلة:

«استيقظي يا سيدتي، انه فعلا ينهار بدونك.. استيقظى»، ثم أدارت وجهها صوب الباب كى تذهب إليه، و لكنها توقفت فجأة فى ذهول بعدما سمعت هذه الجملة، «لقد ذهب إبراهيم.. ذهب دون عودة»

كانت كلمات ضعيفة مكسورة و ممزوجة بالدموع.

الفصل السابع

المعاناة..

أشباح تمنعك من الخروج للحياة، تبقى محبوس فى رحم ألم، ضيق.. مظلم و متسخ لا يلفظ سوى جنين فارق الحياة، أو آخر غير مكتمل النوم بصحبة القليل من الأوكسجين، فيكتفى من حولك بمراقبتك و كأنك فأر للتجارب داخل قفص زجاجى يرى الأمل بالقرب منه لكن لا يستطيع الوصول.. أقدار.

عاد إبراهيم إلى فراشه و من حوله وقف جورج والطبيب والمسعفين، كان يحتاج لجلسة تنفس صناعى و كذلك لبعض المهدئ، لم يتمالك جورج نفسه من حال إبراهيم المنهار تماما على عكس طبيعته، فجلس إلى جواره بينما يحاول الطبيب إسعافه.

بضع دقائق حتى عاد إبراهيم لوضعه النائم مرة آخرى و لازال جهاز التنفس فوق أنفه، اقترب الطبيب من جورج قبل أن يقول:

«حالته تزداد سوء و من الأفضل أن نجرى لرئتيه أشعة»، لم يستطع جورج النطق واكتفى بالإشارة برأسه عن تفهمه و تأييد الرأى، فجأة تذكر جورج كاميليا فقال:

«أنا متفق معك بضرورة بقائه هنا لبعض الوقت، و ربما حتى تتحسن حالة كاميليا أيضا، لكن أتوقع رفض كاميليا لهذا»، فقال له الطبيب:

«لا أفهم سبب إعتراضها على بقائه هنا كل مرة، لكن حالتها الصحية أيضا حرجة وتحتاج للفحص والراحة يا جورج»، نهض جورج و هو لازال ينظر لإبراهيم ثم قال:

«أنت محق فى ذلك، سوف أتحدث معها حينم...».

قاطعه صوت قادم من عند الباب قائلا:

«سوف نصحبه للمنزل ما أن يستيقظ و ينتهى الطبيب من الأشعة، لا حاجة له بالبقاء هنا»، نظر جورج صوب الصوت، لقد كانت كاميليا والتى تستند على نجوى عند باب الغرفة، و من الواضح أنها سمعت ما قاله الطبيب و أعلنت رفضها، تقدمت صوب إبراهيم بخطوات متثاقلة مكبلة بالتعب، حينما قال لها الطبيب:

«انه يحتاج للراحة و هنا أفض...»، قاطعته هو أيضا بنبرة حادة قائلة:

«سيذهب لمنزله اليوم بعد أن يجرى الفحص، و أنا سأهتم به»، ذهب جورج نحوها ثم أمسك يدها كى يجلسها على الكرسى و هو يقول:

«كاميليا.. أنت أيضا فى حاجة للراحة والفحص، أرجوك و لو يومين نطمئن على صحتكما»، لكنها اكتفت بالنظر إليه دون أن تتكلم، ثم نظرت صوب إبراهيم دون أن يرمش لها جفن، ثم قالت:

«هناك الكثير يجب أن نتحدث به، و من الأفضل أن يكون ذلك بسرعة و فى بيته»، لم يعقب جورج على ما قالته واتجه صوب الطبيب يتحدث معه فى طرف الغرفة، أما نجوى فقد أحضرت

بعض الماء لكاميليا كى تشرب، والتى ارتشفت من الماء بعضه ثم أخذت تنظر لما تبقى من ماء بالكوب، و فجأة أمالت الكوب رويدا رويدا تسكب ما به على الأرض و هى تقول:

«بعض قطرات من الماء جعلت من هذا الكوب ذو قيمة، تلك القيمة اكتسبها بفضل وجود الماء به، كوب زجاجى.. بلاستيكى.. معدنى و لو كان حتى معدن نفيس، ما قيمته وهو فارغ؟»، اندهش الحضور جميعا مما تفعل، لكن الحضور اكتفوا بمتابعة ما تقول فى صمت، حينما أكملت:

«أشبه تماما هذا الكوب يا إبراهيم، أما أنت فالماء الذى يملئنى و يجعل لي بهذه الحياة أهمية و قيمة، و ها هى معاناتنا تسكب مائي مني لأصبح مجرد كوب فارغ بلا قيمة، كم هذا مؤسف حقا»، فجأة أفلتت الكوب من يدها ليسقط على الأرض فينكسر لقطع أكبرها كان قاع الكوب، ثم انحنت ممسكة تلك القطعة فى حين هرعت إليها نجوى تمسك ما بيدها، لكن كاميليا دفعت يدها بعيدها و هى تنظر لها قائلة:

«لا تخافى.. أن انظر لها فقط، أنظر لنفسي بعد إبراهيم ولا أفكر بالانتحار»، ثم عادت لتنظر مرة آخرى له و هى تقول:

«هل تري ما تبقى مني، قاع الكوب الذى كان يحملك، ذلك القاع هو حبي لك طيلة السنوات التى مضت، تريد أن تموت؟ سأتمزق و لن يبقى مني سوى ذلك الحب»، عاد لها جورج مرة آخرى فأمسك يدها دون أن تنظر له ثم التقطت منها قطعة الزجاج، حينما أكملت قائلة:

«كنت أود أن أرد عليك ما قلت منذ قليل، لكن صوت دموعك كانت كالرعد، كم كانت قوية و حادة، وضعتها على رقبتي لم أقوى على التفوه بعدها، كعادتك تجيد تكميم فمي حينما يتوجب علي النطق».

ثم نهضت من مكانها دون أن تنظر لأحد، حاولت نجوى أن تمسك بيدها لكنها أشارت لها بالرفض فتركتها تذهب حيث تريد، و تركت من خلفها الجميع فى حالة انكسار.. تماما كالكوب.

❖ ❖ ❖

جلس أسامة فى مكتبه منهمك فى تصفح بعض الكتب والملفات أمامه، لقد بدأ بالفعل فى تحضير أوراقه التى سيرفقها مع ملف حالة إبراهيم للمحكمة فى محاولة منه فتح باب لإقرار قانون يسمح بإقرار القتل الرحيم، ربما لم تكن المرة الأولى فى السنوات الماضية التى ينادى فيها محام بمطالبة مراجعة موقف القانون حول تلك النقطة المعتمة حتى الآن، لكن كلها تم إخمادها قبل ظهورها و تم إدانتها و بشدة من محافل كثيرة كان أهمها الأزهر الشريف.

قطع تفكيره صوت الباب حيث هناك من يطلب الإذن بالدخول، فسمح أسامة لمن بالباب بالدخول، فظهر من خلف الباب شاب ثلاثينى طويل القامة مهندم الثياب، و قبل أن يدخل للغرفة قال:

«سيدى.. هل طلبتني؟» اعتدل أسامة فى جلسته و أشار إليه

بالدخول والجلوس، أكمل أسامة الورقة التى كان يتفحصها ثم نظر إلى ذلك الشخص و سأله:

«قل لي يا أحمد.. ما رأيك كمحام بالقتل الرحيم؟»

اعتدل أحمد فى جلسته حيث أن السؤال كان غير متوقع فأصابه بعض الارتباك، حاول إخفاءه بالاعتدال على مقعده قبل أن يقول:

«لطالما كنت مهتم بهذه النقطة و حاولت كثيرا البحث فيها، قرأت الكثير من الأبحاث القانونية الخاصة بذلك، تابعت حالات كثيرة تنادى بأحقيتهم فى موت رحيم، دول أقرت بضوابط و دول أدانت، إنها نقطة معقدة كثيرًا سيدى»

التقطت أسامة قداحته و أخذ ينظر لها حيث كان يديرها بأصابعه، ثم قرر أن يشعل سيجارة و نهض من على مكتبه ليدور حول الكرسى و يقف خلفه ثم قال:

«هل تظن أن القانون المصرى يسمع بالنظر فى ذلك النوع من القضايا إن قمنا بعمل عريضة دعوى بالمحكمة الدستورية؟»، نهض الشاب بدوره إحترامنا لرئيسه ثم نظر لأسامة و قال:

«لا أظن ذلك، طبقا للمادة الثانية من الدستور فالقانون المصرى مبنى على الشريعة الإسلامية، و حيث أن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق مُحرم فلن يسمح أحد به»، تقدم أسامة من مكتبه ثم اتلقط بعض من الأوراق و قال:

«هناك العديد من الحالات شفاؤها معدوم، و حالات موت جذع المخ أيضا حالات لا أمل فيها بل إن بقاء المريض على

الأجهزة مضيعة للوقت و تكلفة مهدرة أيضًا».

حاول أحمد الوصول للنقطة التى يدور حولها أسامة فلم يصل إلا أن رئيسه يفكر بموقف القانون من القتل الرحيم و إمكانية قبوله و تقنينه، لكنه لا يدرى سبب هذا الحوار و هل ينوى أن يقتحم تلك النقطة؟ و لماذا؟.

دفعه الفضول ليسأله قائلا:

«سيدى.. هل سمحت لي بسؤال؟ لماذا تبحث فى هذه النقطة تحديدًا؟»، اكتفى أسامة بادئ الأمر بالنظر إليه و هو يدخن سيجارته، ثم عاد لينظر لبعض الأوراق مرة آخرى قبل أن يقول:

«أريد أن أقتحم هذا المكان و إلقاء ضوء على هذه النقطة، لدى شخص يريد الحصول على هذا الحق»، نطق أحمد بنبرة عالية من بعد انفعاله بكلمة حق قائلا:

«لكنه ليس حق سيدى، كيف لنا العبث بنقطة تقضى على إزهاق روح فقط لأنها تعانى من مرض ما و إن كان مستحيل شفاءه فخالقه وحده من يملك ذلك الحق لا نحن»، جلس أسامة ثم نظر إلى أحمد قائلا:

«نحن لا نناقش هنا الأمر دينيا، و لا أخلاقيا حتى، إننا نتحدث عن القانون والذى لا يوجد به ما يمنع و لا ما يقر هذه النقطة غير أنه يعطيه الحكم كأنه نوع من الانتحار مع العلم أن الحق بالانتحار غير الحق بموت رحيم».

شعر أحمد أن مهما قال له لن يفلح فى إقناعه فما كان منه إلا أن جلس و تركت أسامة يكمل قائلا:

«سوف نقدم الدعوى، و يتم تسريب هذا الأمر للصحف و فى تلك اللحظة سوف أتواصل مع بعض الأصدقاء لترتيب لقاء تليفزيونى بأحد البرامج الحوارية و نرى الرأى العام و نضغط بالتالى على المحكمة لتبيان الأمر، مع مراعاة ما سنرفقه من تقارير وأسانيد تعمل على نجاح المحاولة لأنها ستكون الأخيرة»

قال له أحمد بصوت متردد:

«ما المطلوب مني يا سيدى؟»، نظر له أسامة و تناقل نظره ما بين أحمد والأوراق الموجودة على مكتبه، ثم قال:

«هذا هو المطلوب، أريد تقارير عن حالات تنادى بالقتل الرحيم، مع بعض المعلومات عن حالات مشابهة ببعض الدول التى أقرته حتى الآن والتعديلات الدستورية والقوانين التى حددت إباحته، و عليك أن تترك كل شىء و تبدأ بذلك من الآن».

نهض أحمد ثم توجه صوب الباب، و ما أن وصل حتى قال له أسامة:

«خمسة أيام أظنها كافية لعمل عريضة الدعوى، أحرص على ألا تتأخر.. بالتوفيق»، ثم غادر المكتب و ترك خلفه أسامة يكمل ترتيب أوراقه، فقد كان جاد جدا فيما طلب، والأمر ليس كما قاله لجورج أنه سوف يتم رفضه، إنه يحاول أن يفوز به، بموت إبراهيم.

الفصل الثامن

هل أنت بخير؟..

ياله من سؤال باهت و فج.. على الرغم من مواساته إلا أنه وقح، خاصة لشخص طفح زبد الحزن على أمواج حياته، نكذب بنحن بخير، فقط حتى لا تميع أمعائنا بتلك السموم التى تسكنها، حتى لا نلوث ذلك الثوب الأبيض، حتى لا ينكسر الحاجز الزجاجى الذى يفصل ما بداخلنا عن ذلك الهدوء المصطنع.. كم هذا سخيف حد الألم!.

جلست كاميليا على أحد الكراسى بساحة الإنتظار حيث لم يتبعها أحد، لقد كانت بحاجة للإختلاء بنفسها، كما أن الحضور لم يستطيعوا مواجهة ما قالت، كان على الجميع أن يحاول قدر ما استطاعوا أن يلتقطوا مخيط الهدوء ليحيكوا لكل ثوب ظاهريا يبدو أنيق.

لا زالت تسمع كلمات زوجها و كيف أخبرها بضرورة ذهابه، و كأنه لازال يكررها، غابت تمامًا عما حولها، ربما تحاول استيعاب ما قال، ربما تحاول التفكير بتلك المواجهة والتى هرب منها الطرفين واستبدلاها بحديث من طرف واحد ربما لا يستطيع تكراره مرة أخرى، فى هذه اللحظة انها وحيدة تمامًا، وما بداخلها يصرخ و روحها تنتحب و بشدة.

مر الوقت على كاميليا دون حركة، إلى أن ظهر جورج الذى

كان يبحث عنها ، جلس إلى جوارها دون أن يتكلم و هو ينظر للأرض، لكنها امتلكت الشجاعة لتبدأ الحديث فقالت:

«لا تقلق.. أنا لازلت بخير فلا داعى لهذا السؤال و دعنا نتناول وضع إبراهيم بطريقة جدية ، يجب أن يعود لبيته اليوم من فضلك» ، تنهد جورج ثم نظر لها قائلًا :

«لا عليك فسوف أسمح له بالذهاب بسيارة اسعاف حتى المنزل، و سوف أصطحبه بنفسي، أتَفَهّم جيدا ما بداخلك و لن أناقش ذلك».

نهض جورج من مقعده و غاب قليلا ثم عاد و فى يده كوبين من القهوة ، جلس و مد يده لها بكوب فأخذته حينما كان يقول:

«سيساعدك قليلا ، أنت لم تأكلى شيئا حتى الآن، دعينى أحضر لك شىء» ، حاول النهوض لكنها أمسك ذراعه و هى تقول:

«لا أستطيع، أشكرك على القهوة» ، نظر إليها و هو يهز رأسه فى استجابة ثم جلس، تركها تحتسى قهوتها فى هدوء ، و جلس هو الآخر يفكر و ما إن انتهى كلاهما من قهوته أخذ الكوب منها و ذهب يلقيها بسلة المهملات ثم عاد ، ثم قالت:

«لقد سمعت ما كان يقوله ، لم ينتبه أننى استيقظت، كان يبكى بشدة و يطلب مني السماح له بالمرور ، لا أدرى كيف تمالكت نفسي يا جورج لكن حقا كنت عاجزة عن النطق، انه لا يحب المشفى أنت تعلم، لكن هناك شىء آخر فوق صدره» ، نظر إليها جورج و هى تكمل قائلة:

«يخشى أن أذهب و أتركه ، فقدانه سمير سَلَّط الضوء على

نقطـة داخلـه، أن الموت لا يُعطـى فرصة، يأتى ليأخـذ و لن يرضخ لكـم التوسـلات لينتظر قليلًا، لقد انهـار و لا أدرى كيف أتخطى ذلك معه».

عقدت ذراعيها على صدرها وهى تنظر لأعلى قبل أن تكمل:

«هل لديك شىء يفيدني فى هذا؟».

تنفس جورج فى هدوء ثم قال لها:

«إبراهيـم عنيـد جـدا، خاصـة إذا قرر شـىء فلا نقـاش معه حينهـا، لكـن بحكم صداقتنا منذ الطفولة سـأقول لك شـىء ربمـا يفيد، لا تتحدثى معه عن ذلك الآن، و لو حاول أخبريه أنك لسـت على ما يرام لمناقشـة تلك النقطة، عليك خلال تلك الفترة أن تخرجيه من المنزل لأى مكان يرى فيه الحياة، يجب أن يرى الوجه الآخر لقراره».

نظرت إليه كاميليا و هى تشعر ببارقة أمل، ثم قالت:

«أنت محق فى ذلك، لن أجادله و سأكتفى بالصمت والتجاهل و سوف أنظم لخروجه من المنزل مع نجوى ربما يجدى».

ابتسم لها جورج و قال:

«أنـا معك تماما، ثقى بأن لـك كل دعمي، والأن دعينا ننهى أوراق خروجه و تجهيز السـيارة لنقلـه للمنزل قبل الليل»، نهض جـورج متجها صوب غرفة إبراهيم، و كاميليا جلسـت مكانها تكمل التفكير بما سيحدث، تحاول أن ترتدى دروعها و تستعد لتلك المعركة.. معركة الموت.

❖ ❖ ❖

استيقظ إبراهيم لكنه بالكاد يفتح عينيه من تأثير المنوم، لحظات حتى استطاع تمميز المكان، إنه فى بيته أخيرًا ، حيث نجوى لازالت تجلس جواره، و فور ما استجمع نفسه نطق بصوت منخفض قائلًا :

«أين كاميليا؟».

نهضت نجوى من مكانها ثم قالت:

«سيدى إنها بالمطبخ تُعِد لك بعد الحساء و ه..» ، قاطعها إبراهيم بلهجة حادة و هو يقول:

«أريد أن أراها من فضلك» ، لم يكد ينهى كلماته حتى ظهرت كاميليا عند الباب و فى يدها طبق من الحساء الساخن وهى تقول:

«لماذا أنت مضطرب؟ أنا هنا لا تقلق» ، حاولت رسم إبتسامة على وجهها لكنها لم تخدع إبراهيم الذى طلب منها أن تجلس إلى جواره على السرير كالعادة ففعلت، فى حين طلبت نجوى منهما الإذن كى تذهب لتحضير بعض القهوة و هى تقول:

«هل أحضر لكما القهوة؟» ، أجابتها كاميليا :

«سيكون جيد جدًا بعد هذا اليووم الشاق، سنشرب معك» ، تعجب إبراهيم من طريقة كاميليا والتى كانت تتعامل و كأن شىء لم يحدث أو كأن ما حدث كان فى أحلام إبراهيم و لم يُخبرها بقراره، لكنه إبتسم فى سخرية قائلًا :

«ما رأيك ببعض الموسيقى أيضا؟ و إن سمحتى لي أيضا برقصة سيكون ممتاز» ، ابتسمت و هى تقول له:

«أنت تعلم أنى غير جيدة بالرقص، فشلت كثيرًا ف...»، لكنه قاطع ما تقول صارخًا:

«ماذا يحدث؟ ألن تقولى شىء آخر؟ ألن تصرخى و تقولى كيف تفعل ذلك بي؟»، مدت يدها تلامس وجنته و هى تقول له:

«إن كنت تحبني حقا؛ عليك أن تهدأ قليلًا و دعنا لا نتحدث عن ذلك الآن، أرجووك يا إبراهيم»، أشاح إبراهيم وجهه للطرف الآخر حيث تبعد يدها عن وجهه، فأكملت قائلة:

«لقد تعودت على الهرب مني، و تلومنى الآن لأننى أهرب منك لأول مرة؟ ما قلته أمس لن أناقشه معك الآن، أعطنى بعض الوقت، كلانا يحتاج أن يلتقط أنفاسه قليلًا، نحتاج لهدنة كى نتناقش يا إبراهيم».

نظر إليها نظرة طفولية قبل أن يقول:

«أعتذر عن الصراخ، لقد تفاجأت من هدوءك فكنت فى إنتظار موجة غضب وعتاب، أنت محقة تماما فأنا كنت أهرب و لم أستطع مواجهتك و كنت أتصيد الفرص و أنت نائمة كى أخبرك بما أشعر كى لا تسمع...»، قاطعته وهى تعيد كفها على وجنته قائلة:

«و من قال لك أننى لم أسمع؟ أتدرى ما هى أصعب لحظة عايشتها بعد لحظة الحادث؟ تلك اللحظة التى جمعتنا اليوم وأنت تبكى و تطلب مني أن أتكلم فى حين أن لسانى عالق ولم أستطع أن أنطق، سامحني لقد كنت منهارة تماما مثلك»، اندهش إبراهيم مما سمع، فهو لم ينتبه أنها كانت مستيقظة،

حتى أنه من إندهاشه نسى ما قاله فى تلك اللحظة وتذكر بكاؤه فقط.

قرر الهروب مرة أخرى مع احترام رأى زوجته بتأجيل النقاش ثم قال:

«لنتناول الحساء قبل أن يبرد، بعد قليل ستحضر نجوى القهوة»، ثم ابتسم لها و هى تضع الطبق على المنضدة قبل أن يقول:

«أعيش أو أموت، أمنيتى الوحيدة هى أن تكونى زوجتى بالآخرة، ربما أحظى بفرصة ثانية للرقص معك أيتها الفاتنة»، ابتسمت و هى تطعمه و لكنها قبل أن ترد عليه كانت نجوى تطلب الإذن بالدخول، سمحت لها فدخلت نجوى ممسكة هاتف كاميليا قائلة:

«سيدتى.. السيد أسامة اتصل مرتينو لم تنتبهى لأن الهاتف بالوضع الصامت، يريد أن يتحدث إلى سيدى»، التقطت كاميليا الهاتف ثم فتحت مكبر الصوت ليحدثه إبراهيم الذى قال:

«مساء الخير يا أسامة»، جاوبه أسامة بإلقاء التحية ثم قال:

«حمدا لله على سلامتكما، ذهبت للمشفى لكن الطبيب أخبرنى أنكما بالمنزل، لن أزعجكما بهذا الوقت بالحضور، لكن سأزوركم فى وقت لاحق لمناقشة بعض الأمور، لكن أريد منك أن تخبر جورج بتجهيز ملف حالتك الصحية فأنا بحاجة إليه»، نظرت كاميليا إلى إبراهيم وهى تنتظر رده، فأجابه:

«حسنا سأنتظرك غدا، و سأتحدث مع جورج بهذا الخصوص، و سنناقش باقى الأمور غدا، تصبح على خير».

أغلقت كاميليا الهاتف و هى متوترة من رده، فقالت:

«ألم نتفق أن ننتظر قليلا و نتناقش بهذا؟»، نظر لها و قال:

«نعم أنا و أنت، لا أنا و أسامة، من فضلك لننهى المناقشة هنا أو نكملها حتى النهاية بقرار»، وضعت كاميليا هاتفها على المنضدة ثم أكملت إطعامه دون أن تتكلم، و ما إن انتهت حتى أخذت الطبق و ذهبت للمطبخ، و ما أن غادرت الغرفة و أبتعدت نطق إبراهيم بصوت خافت:

«سامحيني يا كاميليا.. سأكمل بطريقي، سأكمل حتى أحصل على الراحة مهما كلفني الأمر».

❖ ❖ ❖

الفصل التاسع

كم منا يحمل على تخوم قلبه حرب مشتعلة ما بين الحزن والتمنى، يُرسل جنوده لتدك حصون الألم بالأمل، فتتشتت تلك الجنود بإنفجار قنبلة الواقع، ويسقط كل واحد منها على شكل دمعة، وماذا نفعل؟ فنحن دائما نبحث عن قبس بالظلام، حتى و لو كان لهيب شمعة.

الأيام تتساقط ببطء شديد على إبراهيم الذى أصبح شارد طيلة الوقت، يحاول الوصول لشاطئ بعيد عن المعاناة، لا يدرى متى و لكنه تَحَمَّل الكثير حتى تلك اللحظة، يتصفح كتابه أمام عينيه ماذا فعل بحياته و ماذا لم يفعل و ماذا كان يفترض به أن يفعل؟ فقط نظرة عكسية لحياته و عودة للخلف، حيث لم يعد هناك أى تطلع ليوم جديد سوى الانتظار دون أمل.

كاميليا بدورها تتجنب الحديث معه على الرغم من علمها التام أن حالة صمته تحمل عاصفة خلف تلك القمة العالية، تخشى أن تصعد القمة لترى ما خلفها تعصف بها الريح لتسقط فى الهاوية دون رجعه، لكنها تتمسك بحبل الأمل ربما يهدأ، أو تفشل مساعيه كما قال لها جورج.

على الرغم من سعى أسامة خلف القضية، و حصوله على ملف حالة إبراهيم و كذلك بعض الحالات الأخرى المعقدة، فهى تتمنى أنه لا مجال لتطبيق هذا الشىء، لكن ما كان

يشغل بالها حقا هو ما هى الخطوة التالية، فهو لن يستقر مكانه عند الرفض إن حصل، فما عساه ينوى.

غربت شمس اليوم و لا زالت نجوى تقوم ببعض الأعمال المنزلية لهم، على الرغم من أنه ليس من شأنها، إلا أنها تعيش معهم منذ سنوات و تتعامل معهم كعائلتها خاصة بعد وفاة والدها وهى طفلة، ربما قربها من إبراهيم كان يريحها حيث عطفه عليها واهتمامه بها كطفلته، و ربما هما أيضا باعتبار أنها طفلتهما التى لم يرد الله أن تكون من صلبهما، فكانت علاقة متبادلة دون مصلحة قائمة على الحب المتبادل.

دخلت كاميليا المطبخ لتشرب بعض الماء، فأقتربت من نجوى و هى تقول:

«ما رأيك أن نغير من روتين اليوم القاتل و نخرج جميعا غدا نتناول الغداء و نتنسم بعض الهواء، لم نحظى بتلك الفرصة من قبل، هل أنت متفرغة»، تفاجأت نجوى بطلبها و شعرت بالسعادة فالجميع فعلا فى حاجة ماسة لذلك، فقالت لها و هى تبتسم فى فرح:

«نعم نعم أنا متفرغة تماما و إن لم أكن سأترك كل شىء لأحظى بهذا اليوم معكم»، ابتسم كاميليا تعبيرًا عن سعادتها بوجود نجوى معهم، لكن نجوى فاجأتها بسؤال قائلة:

«هل سيدى على علم بذلك؟» أجابتها قائلة:

«ليس بعد، فى الحقيقة لقد كانت فكرة جورج وقت كنا بالمشفى، و منذ ذلك اليوم أحاول الإستعداد لهذا بعد أن شعرت بتحسن حالته، أتمنى ألا يردنى بالفرض»، أمسكت نجوى

يديها وهى تقول:

«هل تودين مساعدتي فى هذا؟ أم من الأفضل أن تقررا ذلك وحدكما؟»، أجابتها كاميليا:

«سأحاول معه أولا، و لو فشلت سأطلب دعمك فورًا»، ابتسمت نجوى ثم ذهبت كاميليا لغرفة زوجها، و ما إن دخلت حتى جلست إلى جواره و قالت:

«هل تحب البدلة السوداء أكثر أم الرمادية؟ أظن السوداء على القميص الأبيض تناسبك و تجعلك وسيمًا أكثر»، ابتسم لها ثم قال:

«لماذا؟ هل سنجدد زواجنا؟ أم تبحثين لي عن عروس آخرى؟ لو ذلك فأحرصى على أن تكون جميلة مثلك و إلا ستغار»، ابتسمت و هى تقترب من وجهه حين قالت:

«أحمق.. أنا جميلة لأنك ترانى بعينيك فقط»، نظر إليها دون أن يتكلم، فقاطعت صمته قائلة:

«لم أتلقى جواب مفيد، أى منهما؟»، فرد عليها:

«ستوقف ذلك على سبب إرتداء البدلة»، نهضت من مكانها و توجهت صوب النافذة ثم فتحتها قليلًا لتتنسم بعض الهواء، ثم عادت تنظر إليه قائلة:

«أود أن نخرج سويا غدًا لقضاء اليوم بالنادى، نحن فى حاجة لذلك يا إبراهيم»، نظر صوب قدميه ثم تنهد فى بطء وقال:

«لقد حرمتك من الكثير يا كاميليا، سنوات و أنت حبيسة مثلى تماما هنا، لم نحظى بوقت جيد، و لم تغادرى المنزل إلا

للذهاب للمفشى، سنوات و أنت بهذا المنزل و لا أدرى على ماذا تعاقبين حالك و..»

قاطعته فجأة حين قالت:

«عن أى عقاب تتحدث؟ نحن تعاهدنا منذ زواجنا أن نكون عوضًا لبعضنا البعض، أن نكون فى كتف بعضنا مهما حدث، و أنا لا أعاقب نفسي وأنت لم تحرمني وكف عن هذا الهراء من فضلك».

عادت تنظر لنافذة كى تخبئ ملامحها الحزينة، ما قاله جعلها تشعر بالحزن حيث أنه فصل بينهما فى حين أنها تحاول إصلاح ذلك الشرخ القابع بين روحيهما، حاولت جذب بعض الهواء ربما يبرد ذلك من دواخلها، لكن الهواء لن يصلح ما يفسده إبراهيم.

ساد الصمت قليلًا قبل أن يلتقط طرف الحديث قائلًا:

«هل لازالت البدلة السوداء تناسبني؟ ألم يزداد وزني كثيرًا فى الأونة الأخيرة خاصة مع الطعام الرائع الذى تحضره زوجتي يوميا؟»، لم تلتفت له فورًا و لكنها تمهلت بضع ثوان حتى عادت بوجهها له، كنوع من العقاب على ما قاله فهو يدرى ذلك حينما قال:

«إن يغيب وجهك هذا أقصى عقاب من الممكن أن أحظى به، و ربما أعاقبك الآن بحرمانك من نزهة الغد، لكن ستعاقبيني بالتالى غدا و لن تنظرى لوجهي، دعينا نخرج و نصطحب معنا نجوى للنزهة»، عادت لتجلس بجانبه ثم قالت:

«نحن جميعا نحتاج ذلك، ربما يساعدنا على التفكير، سأذهب لتفقد البدلة و إحضار العشاء و كذلك لأخبر نجوى»، ثم انصرفت فى هدوء لغرفتها، لم ينطق بشئ حتى غابت تماما، ثم قال بصوت خافت:

«أدرى ما تحاولين فعله والغرض من الخروج، أعتذر جدا يا عزيزتي لقد تجاوزت الرصاصة فوهة السلاح و من المستحيل عودتها»، ثم أغلق عينيه ليعود لتفكيره وقراءة كتابه.

❖ ❖ ❖

يوما مختلف كأنه بقعة بيضاء صغيرة داخل رقعة زيت سوداء واسعة، ربما صغيرة لتُحدث فارقن لكنها ظاهرة فى وسط المحيط الأسود، شعرت كاميليا بوجود إبراهيم الذى لم يتوقف عن مغازلتها و عن الضحك، كان يضحك و كأنه طفل صغير يلهو، نعم كان يشعر بعجزه حينما يرى الناس تتحرك وتلعب من حوله، لكنه استخلص من ذلك نقطة ساعدته على الشعور بالمرح، و هى كاميليا والتى تريد أن تغير له تفكيره بأن يرى العالم بشكل مختلف، و هى نفسها التى عزلت نفسها عن النطاق الخارجى كى تبقى معه حتى لا يشعر بالعجز، لهذا كان عليه أن يمرح و ينسى حالته من أجلها بالمقام الأول.

لكن دوما اللحظات السعيدة تمر بسرعة، حتى لو كانت سعادة منهكة و مهددة بأنياب الحزن التى يبطش بها دوما، فأنتهى اليوم و حان موعد العودة للمنزل، كانت نجوى تركب بالمقعد الأمامى جوار السائق و هما بالمقعد الخلفى، و ما أن

انطلق السائق حتى قالت نجوى:

«لا أدرى لماذا إنتهى اليوم بهذه السرعة، كان بالفعل يومًا رائعًا»، رد عليها إبراهيم و هو يبتسم:

«ماذا نفعل يا ابنتى؟ دائما ما ينتهى المرح، دائما ما ينتهى الوقت، كل شىء مرهون بنهاية، لكن الأهم هو كيف نستغل هذا الوقت القليل لنفعل الكثير، أو نفعل الشىء الذى يجعلنا نمرح كثيرًا»، استدارت نجوى لتنظر له قائلة:

«نعم أتفق تمامًا، فعلا كان وقتًا جميلًا، و كنت سعيدة بالأطفال حينما جلسوا جوارك ليستمعوا للقصص، شعرت بساعدتهم لأننى مثلهم حينما تقص لي الحكايات و تشرح لي شىء».

التطقت كاميليا طرف الحديث فقالت:

«لقد لاحظت ذلك، و كم شعروا بالحزن حينما قررنا الرحيل» ثم نظرت لنجوى و هى تقول لها:

«و أنت يا نجوى ابنتى و نحن سعداء جدا بوجودك، نشعر دائما بالتقصير لأننا طوال هذه السنوات لم نفكر بيوم نمرح فيه سويا، فأنت أيضا بحاجة لذلك».

قاطعها إبراهيم و هو يبتسم قائلا:

«كيف هذا؟ يكفيها أنها تتركنا كل ليلة فى السابعة وتذهب للمنزل، كان من المفترض أن أحبسها بالمنزل و نشترى لها ملابس جديدة و تبقى معنا دائما»، لم تجد نجوى ما ترد به عليه سوى الضحك، فهى تحبهما جدا، كما هما تماما،

فوجود إبراهيم فى حياتها قد أمدها بالقوة والإلهام، و سد فراغ غياب والدها قليلًا.

توقفت السيارة أمام منزل إبراهيم فنزلت نجوى لتخرج الكرسى المتحرك من السيارة، و ما إن أحضرته حتى فتحت الباب كى تساعد كاميليا بوضع إبراهيم عليه، انصرف السائق ثم توجهت كاميليا بصحبة إبراهيم صوب الباب تبعتهما نجوى والتى قالت:

«سيدى.. أشكرك كثيرًا على هذا اليوم حقًا»، توقفت كاميليا وأدارت الكرسى صوب نجوى حينما قالت:

«لا داعى لذلك نحن عائلة واحدة و هذا واجب علينا، سامحينا يا ابنتى لقد وضعنا على كاهلك الكثير»، تجوهت نجوى صوبها و هى تضع يد على كتف كاميليا والأخرى على كتف إبراهيم و هى تنظر لهما فى مودة قائلة:

«يكفينى أنكم عائلتي و كذلك أنكما تعتبرانى ابنة لكما»، ثم ألقت عليهما التحية فى طريقها للمغادرة، و بقيا هما مكانهما لوداعها، و ما أن وصلت نجوى عند باب الحديقة، ظهرت دراجة بخارية عليها شابين و بعد أن مرا من أمام نجوى أشار أحدهما للآخر أن يعود، ثم توقفا أمام نجوى مباشرة و بدأ سائق الدراجة بالتحرش اللفظى بها و لكنها لم ترد، فهنا نزل الثانى من على الدراجة و بدأ يلمسها فى حين رأت كاميليا ذلك و حاولت إبعادهما بالحديث لكنهما لم يستمعا لها و أكملا ما يفعلا، بدأت نجوى بالصراخ لطلب النجدة، هنا دفعها أحدهما داخل الحديقة و أغلق الباب الأمامى.

توجهت كاميليا صوبهما و إبراهيم يحاول الصراخ بهما بصوت عال عسى أن يسمعه أحد الجيران، لكن أحدهما أشهر سكينا فى وجه كاميليا و هددها فى حين الآخر استمر بالتحرش بنجوى و يحاول تجريدها من ملابسها، هنا صرخ إبراهيم فى هستريا:

«ماذا تفعل؟ أنا العقيد إبراهيم كيف لك أن تفعل ذلك بمنزلي؟ أقسم أننى سأقتلك»، ضحك الشاب و هو يميل السكين تجاه كاميليا و هو يقول:

«ماذا ستفعل؟ هيا تعال و أنقذ السيدة ثم ابنتك، تعال.. لماذا لا تأتى؟ أهاااا أنت قعيد، و لا تستطيع فعل شىء، عليك بالصمت أو تشاهد زوجتك الجميلة جثة على الأرض»، كانت نجوى تصرخ بشدة و تحاول مقاومة الشاب، فى حين كاميليا تجمدت مكانها خوفًا من السكين، والشاب يضحك و هو يرى زميله يجرد نجوى من ثيابها، والتى صرخت قائلة:

«النجدة.. أرجووك توقف، النجددددة.. أبى أرجووووك»، كان رد فعل ما يحدث على إبراهيم عنيفا، فهو عاجز تماما عن حماية زوجته و نجوى التى بمثابة ابنته، ما زاد من ثورته أنها و لأول مرة تناديه أبى، هنا حاولت كاميليا دفع الشاب فسقطت السكين من يده و قبل أن تجرى صوب نجوى باغتها الشاب بضربة على مؤخرة رأسها بيده فسقطت مغشى عليها.

ذلك الشعور القاسى- الشعور بالعجز - حينما تجد أعز ما لديك و أقرب من لك يحتاجك و أنت لا تستطيع، والأشد هو أنك تراه يتعرض لضرب واغتصاب و لا تستطيع نجدته، و ما زاد من

شـدته هو صراخ نجوى واسـتنجادها به، أخذ يصرخ فهذا أقسى ما لديه، وفجأة تحول الصراخة لنوبة هسـتيرية من الضحك وهو يقول:

«أنـا العقيـد إبراهيم، أنا القعيـد إبراهيم العاجـز عن حماية عائلتـه، سـأقتلكم جميعـا، سـأقتلكم حينمـا أسـتطيع قتـل نفسـى»، كان ينطـق تلـك الجملـة و هـو يضحك فى هيسـتريا وعيناه تتابع كاميليا المغشـى عليها، و أسـتمر بقول أنا العقيد إبراهيم و يضحك.

لم يظهر أحد خلال تلك الدقائق، نهض الشاب من على نجوى والتـى اسـتجمعت نفسـها و نهضت تهجـم عليه لكنـه صفعها، وقعت على الأرض فوجدت السـكين الذى سقطت من يد الآخر فأمسـكت بـه، وحاولت الهجـوم عليهما، لكن الشـاب كان أسـرع، أخـرج مـن جيبـه زجاجة بها حامـض، و ألقـاه على وجه نجوى التى سـقطت على الأرض و هـى تصرخ من الألم، فى حين هرب الشـابان دون أن يظهر أحد، و بقى بالسـاحة إبراهيم الذى لازال يضحـك والبكاء يغرق وجهه حتى أصبح مبتل تماما، و لم يكن بلل من الدموع فقط، لقد انهار.. تمامًا.

❖ ❖ ❖

الفصل العاشر

القلق.. تلاعب و بشدة بعقل جورج الذى حاول الاتصال بكاميليا عدة مرات دون رد ، كان على علم بخروج إبراهيم ذلك اليوم و سعى لمعرفة نتيجة تلك النزهة على نفسه ، ليس كونه طبيبه المعالج فقط؛ لكن صديقه المقرب ، ذلك القلق الذى يغرس سهامه بالعقل ليقضى على غطرسة التفكير ، لم يستطع الإنتظار أكثر فركب سيارته و توجه فورا صوب منزل صديقه.

قبل أن يصل للمنزل ببضع مترات لاحظ جورج إلتفاف بعض الناس بالخارج وسيارتى إسعاف وسيارة شرطة أيضًا ، زاد إضطرابه حتى وصل لمكان قريب من الزحام فنزل مسرعًا ليتفقد الأمر ، لكن منعه أحد رجال الشرطة من الإقتراب فى حين دفعه جورج جانبا محاولًا المرور و هو يصرخ:

«ابتعد.. أنا جورج طبيب العقيد إبراهيم ، دعنى أمر بسرعة» ، سمعه الضابط المتواجد بموقع الحادث فألتفت له ثم أشار للشرطى أن يتركه ، ذهب جورج مسرعًا صوب سيارة الإسعاف لكن قبل أن ينظر داخلها قاطع طريقه الضابط ليقف أمامه و سأله:

«هل تعرف صاحب هذا المنزل؟» لم ينظر إليه جورج حيث كان يحاول جاهدًا خطف نظرة لمعرفة من بداخل تلك السيارة ، لكن أجابه فى توتر:

«نعم.. أنا صديقه و طبيب العائلة، ماذا حدث هنا سيدى؟»، أمسك الضابط بذراعه محاولا سحبه بعيدًا عن السيارة دون أن ينظر له جورج، فى تلك اللحظة استطاع جورج أن يلتقط من بداخل السيارة أخيرا، لقد كان إبراهيم و على وجهه كمامة التنفس الصناعى والمسعفين، أعاد جورج سؤاله للضابط و هو ينظر له فى هلع ولكن بنبرة أعلى من قبل، فأجابه الضابط:

«تلقينا اتصال من أحد الجيران عن وجود إمرأة مغشى عليها وفتاة أخرى فى الحديقة، و ذلك الرجل فى حالة يرثى لها و يهذى ببعض الكلمات التى لم يفهمها الجار، لكن حينما وصلنا كان فاقد الوعى».

قبل أن ينطق جورج بشئ قاطعهما شرطى قائلًا:

«سيدى.. سيتم نقل المصابين للمشفى فورا، لكن هناك شىء يجب أن تعرفه، الفتاة وجهها مشوه بـ (حامض كبريتيك) و هناك آثار اعتداء عليها»، صرخ جورج و هو يجرى قائلًا:

«نجووى».

حاول الوصول لسيارة الإسعاف الأخرى لكن منعه المسعفون، و أغلقوا أبواب السيارات لتتحرك صوب المشفى مع صوت سارينة الإسعاف العالية.

ما أن وصلت سيارات الإسعاف إلى المشفى حتى هرع جورج محاولًا الوصول لنجوى، لكنه لم يستطع فقد كان الوضع سريعًا بإرسالهم للطوارئ، كان تفكيره بها أكثر، فما قاله الشرطى وقعه صادم، فهى لازالت فى ريعان شبابها،

كما أنها العائل الوحيد تقريبا لأسرتها ، والأكبر من ذلك أن حياتها إن نجت اليوم قد أصبحت منتهية أكلينيكيا. لكنه انتبه فجأة لشيء آخر ، أين كاميليا؟ زاد عقله تخبطًا و كأنه مذياع مرتفع الصوت داخل سيارة مكشوفة تسير بسرعة عالية ، لا يستطيع تمييز شيء و لا بأى اتجاه ينظر ، عقله توقف تمامًا ، لكن قاطعته أحد الممرضات تسأله هل يعرف المصابين؟ أجابها بنعم ، ثم سألها عن كاميليا فأجابت أن بالداخل ثلاثة أفراد من وصلوا مع المسعفين ، فأعطاها بياناتهم الشخصية وسط حالة التوتر الشديدة المصاحبة له.

بعض قليل خرج أحد الأطباء من الداخل فهرع جورج صوبه سائلًا :

«أنا دكتور جورج صديق المصابين و طبيب العائلة.. أخبرني الوضع أرجوك» ، نظر إليه الطبيب و هو يجذبه بعيدًا عن باب الطوارئ قائلًا :

«الرجل حالته غير مستقرة ، لقد تعرض لنوبة صدرية و كان يعانى من نقص حاد بالأوكسجين ، لكن لايزال الوقت مبكرًا جدا للحكم على حالته ، السيدة فى حالة إغماء و كدمات فى الجمجمة لكن يجب أن تجرى صورة أشعة» ، ثم توقف عن الكلام و نظر إلى الأرض ، فجذبه جورج من يده و هو يقول له :

«و نجوى؟ أقصد الفتاة الأخرى؟ ما وضعها؟» لم ينظر له الطبيب و قال له بنبرة منكسرة يكسوها حزن شديد :

«للأسف.. الوجه والرقبة والجزء العلوى من الصدر مشوه ،

والعيـن لا ندرى وضعهـا حتى الآن..» ثم توقف مـرة آخرى قبل أن يسأله جورج:

«هل هذا كل شىء؟»، نظر إليه الطبيب فى حسرة و هو يقول بنفس نبرة الحزن:

«هنـاك نزيـف داخلى بالرحـم نتيجة تعرضها لإعتداء جنسـى عنيف، فقدت الكثير من الدم و وحالتها غير مسـتقرة، نحاول السيطرة ع...» قاطعه جورج بحزم قائلًا:

فور الانتهاء من الإسعافات الأولية علينا نقلهم لمشفى القوات المسـلحة، الرجـل عقيـد متقاعد و يُعالج بمشـفى عسـكرى، أعتـذر منكم يجب أن أُشـرف أيضا علـى كل هذا، من فضلك أسـرع بتنفيذ ذلـك فور إسـتقرار حالتهم»، أومأ الطبيب برأسـه مستجيبا لما طلبه جورج ثم انصرف.

الانتظار..

سـم القلـق الـذى يفتـك بعقـارب السـاعة فيبطأهـا، يصيب أطرافهـا حتـى لا تحمـل لنا الخبـر، كم هذا الأحسـاس مُرهق و فـظ فـى نفـس الوقـت، يتسـرب داخـل عـروق جـورج فيفتك بتفكيره، ينتظر ما لا يعلمه، والكثير من الحكايا تدور حول عقله و كلها تخمين.

مر الوقت ببطء شـديد حتى تم له ما أراد، والجميع بالمشفى العسـكرى، حيث اسـتطاع أن يـرى الثلاثة و ينتظـر، من منهم سـيعود أولا؟ مـن منهـم سـيعبر عنـق الوقـت؟ و مـا قالـه طبيب المشفى الآخر صحيح حول نجوى و حالة إبراهيم، لكن الوضع

أكثر خطورة حول نجوى التى تصارع الموت، و إبراهيم مُعلق على أجهزة التنفس.

حينما كان يصارع الأفكار والتمنى، دخلت عليه إحدى الممرضات لتخبره أن كاميليا قد إستعادت وعيها، قفز من خلف مكتبه بسرعة متوجها صوب غرفتها، فأخيرًا سيعرف ما حدث، فور ما دخل غرفتها كانت تهذى و بصوت مُتْعَب جدا ببعض كلمات لم يفهم منها سوى نجوى و إبراهيم، لكن ما لفت انتباهه أكثر أنها كانت تضع يدها اليسرى على رأسها، فأمر الممرضة برفع رأسها قليلا، و فورا ما رفعته غابت عن الوعى، فأسرع جورج صوب كاميليا و طلب من الممرضة تجهيز غرفة الأشعة، من الواضح أنها تعانى إرتجاج بالمخ.

و بالفعل دخلت كاميليا لتجرى بعض الأشعات على الجمجمة، و فور حصول الطبيب على صور الأشعة حتى ذهب لجورج ليخبره عن حالة كاميليا، شعر جورج بالهلع و طلب من الطبيب أن يعطيها بعض الأدوية، نظر جورج مرة آخرى للأشعة وهو فى حالة صدمة، لقد كان عكس ما توقع.. تمامًا.

❖ ❖ ❖

جلس أسامة فى مكتبه يتابع بعض الملفات فينتقل ما بينها و كأنه يضيع وقته، حالة من القلق قد صبغت عقله فلا يستطيع الرؤية، تركها فجأة و أمسك بأحد سجائره يشعلها و ينفث دخانها بقوة، نظر إلى النافذة و كأن عقله سبح خارجها مسافرًا إلى الماضى، حيث كاميليا و إبراهيم، حيث تلك النقطة التى

فصلتـه عن حبه، كانت تلـك النقطة دائما ما تنهش جلد عقله، يحاول أن يحكها بأظافر النسيان لكن دون جدوى.

دائمـا ما كان ينظر لتلك النقطة أن إبراهيم مُغتَصِب، انتهك حقـه فى كاميليـا و ما فعله قد أوقف حياتـه تماما بعدما رفض أن تشاركه حياته غيرها، أخفى مدى شماتته فى عجز إبراهيم وكم من مرة إنتظر إعلان كاميليا الإنفصال عنه، لكن دائما مـا كانت تخيبـه ظنه، فكلمـا صدمتهما الحيـاة على طريقها السريع نهضا مجددا أقوى من ذى قبل، ليسكن كهوف الحسرة وحيدًا يأكل الذكرى ربما تشبعه أو يرتوى بأمل لا يراه قريبا.

بينمـا هو غارق فـى بحر أحلامه يبحث عن طـوق النجاة هذه المرة بتحقيق رغبة إبراهيم فى الموت، طرق باب مكتبه فأعطى الطارق إذنًا بالدخول، ليظهر أمامه أحمد مبتسما قبل أن يقول:

«أعتـذر عـن التأخيـر يا سـيدى فالطريـق مزدحم جـدا و..»، قاطعه فى حزم:

«مـاذا فعلـت بالمحكمة؟» إرتبك الشـاب من سـؤاله ثم لملم نفسه بسرعة قائلًا:

«لقـد ذهبت للمحكمة بعريضة الدعوى اليوم و تم التسـليم، كذلك تم تمرير الخبر للصحف بطريق غير مباشر و فى إنتظار موعد الإعلان بإسـتدعاءنا إن فتحت المحكمة الباب للمناقشة والمرافعة، هل تظن أن المحكمة ستفعل ذلك؟».

نهض أسامة من خلف مكتبه متوجها صوب الشاب و هو ينظر لعينيه، ثم دار من حوله قبل أن يتوقف مواجها له تماما قائلا:

«من السهل أن تكون محام جيد ، من الصعب أن تكون محام مشهور ، و ذلك السؤال يدل أنك لازلت تحتاج لخبرة كبيرة حتى تكون محام جيد» ، بُهت الشاب مما قاله و نظر إلى الأرض، فى حين أكمل أسامة حديثه:

«لقد قرأت العريضة جيدًا و قد أبليت حسنًا ، لاحظت أنك لم تترك شىء و هذا دليل على المجهود فى البحث العميق بتلك النقطة ، لكن هناك شىء بحكم خبرتى الطويلة وصلت إليه من إطلاعي عليها ، أنت غير مقتنع بما تفعل» ، استدار عائدا لكرسيه فجلس و سحب سيجارته ليكملها ، ثم أشار للشاب بالجلوس، فأكمل قائلًا:

«ألا توفقني الرأى ؟» ، اعتدل الشاب فى جلسته و هو يقول:

«سيدى.. ربما كان لدى بعض التحفظ على تلك النقطة حيث خصوصيتها الشديدة و كم التساؤلات التى ستنهال علينا ، هذا من نظرة أحمد الإنسان، أما عن أحمد المحامى فلا ، هذا جزء من عملي و يجب أن أكمله» ، إبتسم أسامة و قال:

«و هذا ما قلته للتو ، أولا لازلت تحتاج للكثير ، وثانيا أنت غير مقتنع ، الإنسان داخلك يأكل عقل المحامى، وهذا سوف يعيقك و جدا ، فى عملنا لا تدع أهواءك و ميولك تحكمك ، فنحن ندافع عن القاتل ، تاجر المخدرات ، المغتصب و غيرهم ، فإنت تركت إنسانيتك تتحكم بك لن تعمل بهذا المضمار ومن الأفضل أن تبحث عن غيره».

نهض من على مكتبه وتوجه صوب النافذة ثم قال:

«أنت تتمتع بالذكاء و لهذا إخترتك لتلك المهمة، سأسدى لك نصيحة فكر بها، استثمر ذكاءك فى عملك ستصبح محام جيد، أعطى إنسانيتك راحة و أنت ترتدى المعطف الأسود، هكذا ستصبح محام مشهور»، ثم خفض نبرة صوته متحدثًا إلى نفسه قائلا:

«حان وقت اعتلاء الشاشة».

لم ينظر له أسامة فقد ذهب بعقله بعيدًا مرة آخرى فيما كان فيه قبل دخول الشاب، والذى لم يقاطعه هو الآخر و إنتظر أن يكمل أو يسمح له بالإنصراف، لكن باغته أسامة بما قال:

«لقد خسرت بحياتى قضية واحدة، كانت أول قضية بحياتي و كانت قضية حياتي أيضا، لكنني حولتها لمعركة من جولتين، خسرت الأول والآن حان دور الجولة الثانية، و سأفعل ما يلزم لأكسب قضيتي»، التفت بعدها للشاب و هو يقول:

«ما أسواء طعم الخسارة، خاصة خسارة الشئ الذى تحيا لأجله، ذلك الطعم مُر جدا يجعل من حياتك جحيم لأنك لا تنسى طعمه أبدا، فأحرص على ألا تتذوقه».

لم يفهم الشاب عن أى قضية يتحدث، لكن شَعُرَ أن ما بداخل أسامة بركان يتأجج بالحمم على وشك الثورة، أو ربما ثار فعلا، لكن قبل أن يتحدث أى منهما إرتفع صوت هاتف أسامة بإتصال، فأمسك هاتفه و قام بالرد قائلًا:

«صباح الخير يا جورج، كيف حالك اليوم؟».

و فجأة.. تحول وجه أسامة لوحش ثائر و هو يصرخ قائلًا:

«و أين أنت منذ الأمس؟ و لم تخبرنى حتى هذه اللحظة! أين هى الآن»، أجابه جورج حينما كان يجمع أغراضه من على المكتب مسرعًا.. و غادر فى عجلة.

❖ ❖ ❖

استعادت كاميليا وعيها وسط حالة من الأعياء الشديدة، والألم يفتك برأسها فلا تتحمل حتى الضوء، لكنها تناست كل ذلك و هى تهذى بنفس الكلمات تنادى على نجوى و إبراهيم، كان جورج يجلس إلى جوارها و فورا ما استعادت وعيها وقف على مقربة منها يتفقد معدلاتها على الأجهزة، ثم نظر إليها واقترب منها أكثر واضعًا يده على رأسها و هو يطمئنها:

«إنهما بخير.. استريحى قليلًا فحالتك غير مستقرة»، لم تستطع حتى رفع مقلتيها لتنظر له، كانت كم يحمل تبة ترابية على أجفانها تعيق الرفع، و ما إن حاولت حتى إشتد الألم فقالت بنبرة يفتك بها الألم:

«رأسى يؤلمني بشدة.. لا أتحمل، رأسى لا أتح.. لا أتحمل، أةةةة»، جلس جورج جوارها و هو يقول لها:

«استريحى قليلا سوف أزيدك جرعة من (المورفين)، لكن لن أستطيع أن أزيدك فأنت بحاجة ضرورية لجراحة، هناك تجمع دموى على المخ يجب أن نزيله فورًا و هو سبب ذالك الألم، أرجوكِ استريحى قليلًا»، لم تستطع قول شىء حينما أمر جورج الممرضة المصاحبة بحقنها بجرعة من (المورفين) وأشار لها أنه سيعود بعد قليل.

توجه جورج إلى غرفة الطبيب مسرعًا، كان كل تفكيره الآن مُنْصب على كاميليا التى تُعانى، حيث الكثير والمبهم، حيث القلق والحيرة، لكنه و فى طريقه مَرَّ على غرفة نجوى فدخل يلقى نظرة عليها، تلك المسكينة التى تحولت من شابة جميلة فى ريعان شبابها إلى مسخ مشوه مُغتَصَب، هل ستنجو؟ ربما ستنجو و لكنها لن تعود.. أبدا.

لازالت تصارع الموت على الرغم من توقف النزيف إلا أن الخوف من عودة النزيف يسيطر عليه، ساعات قليلة و يتضح ذلك و تنجو من مرحلة الخطر لتدخل مرحلة آخرى من العذاب فور إستيقاظها، ياله من حال صعب و مربك، عقله مُشَتت بين ثلاثتهم على الرغم من نسيانه لحالة إبراهيم قليلًا، فالوضع أكثر سوءًا هنا.

أكمل طريقه ليتحدث مع طبيب كاميليا و فور دخوله قال:

«علينا أن نسرع بجراحة كاميليا، وضعها يزداد سوء»، نهض الطبيب من مقعده و توجه صوب جورج حاملًا صور أشعة كاميليا و أعطاها لجورج ليفحصها، أخذها جورج و هو ينظر له قائلًا:

«لقد رأيتها و أرى جيدًا ما بها و لذلك أطلب منك الإسراع»، جلس الطبيب على المقعد المواجه لجورج ثم أخذ الأشعة من يده وقال:

«التجمع الدموى يغطى مراكز الحركة، حاولنا السيطرة عليه و حتى الآن لم تتأثر بشىء فهى تحرك يديها لكن لم نختبر قدميها، و ذلك التجمع غريب جدا بالفعل، أول مرة أرى شىء كهذا، سنتابع الحالة الليلة فقط و باكر ستخضع للجراحة،

لكن هل أخبرتها؟»، أجابه جورج:

«و هل تظن أنها تعى شىء الآن؟ لقد قلت لها عن الجراحة، واتصلت بأحد أفراد عائلتها و هو فى الطريق ال..»، فجأة دخل أسامة الإعصار دون إذن متوجها صوب جورج فهجم عليه بعصبية ممسكًا رقبته و هو يصرخ:

«من تظن نفسك؟ كيف تُخفى شىء كهذا منذ الأمس؟ من أعطاك هذا الحق؟»، دفعه جورج بقوة فى حين نهض الطبيب ممسكًا أسامة و جذبه بعيدًا عن جورج و هو يصرخ:

«أجبنى أيها الوغد المتعجرف، سأحاسبك على هذ يا جورج.. حسابًا عسيرًا»، نهض جورج فى غضب متوجهًا صوب أسامة وهو يصرخ:

«الثلاثة يواجهون الموت يا هذا، أنا لم أكن موجود و لا أدرى كيف حدث هذا لهم، و ضاع الوقت ليلًا فى ترتيب نقلهم لهنا، لم يتحرك أحد منا من هنا حتى الآن، غير حالة نجوى»، أمسك جورج يد أسامة فى قوة و أكمل:

«لن ألومك على ما فعلت للتو، لكن أين كنت أنت؟ كنت تبحث عن المجد من خلال إبراهيم.. أليس كذلك؟ لو كنت على اتصال بهم لكنت هنا بالأمس مثلما فعلت أنا، لكن ليس هذا وقت اللوم، كاميليا فى حاجة لجراحة بالمخ وبسرعة، ولهذا السبب فقط اتصلت بك»، صرخ به أسامة من صدمة الخبر قائلًا:

«ماذا؟ جراحة بالمخ؟» نظر إلى الطبيب فى إستفهام ينتظر رده، فطلب منه أن يجلس ليشرح له، و قال:

«لقد تعرضت لضربة قوية على الرأس تسببت فى نزيف داخلى و نحن نسيطر عليه الآن، لكن يجب معالجة ذلك بالجراحة بسرعة حتى لا يؤثر على الحركة فيما بعد»، بُهت أسامة مما سمع و ساد الصمت قليلًا قبل أن يقول:

«وهل هذه الجراحة خطيرة؟»، أجابه جورج:

«لا.. و كلما كان الفصل سريعا كلما كان الأمر أسهل، سوف نجرى الجراحة غدًا صباحًا»، نهض أسامة من مقعده يركض صوب غرفة كاميليا، سأل أحد الممرضات والتى أرشدته لمكانها فركض مسرعًا، دخل الغرفة فوجدها نائمة فجلس على الكرسى المجاور لها و هو يقول:

«من فعل بك هذا؟».

أمسك يدها برفق و عيناه تتألق ببضع قطرات من الدمع تحاول التسلل من محبسها، إنه ضعيف جدًا فى كل أمر يخصها، طفل صغير إن لاحت أمامه، يتمنى الموت حينما تغضب عليه أو تنهره، شلال من الحزن يتدفق من قلبه، و غضب عارم يحرق جنبات عقله مع رؤيتها هكذا، لكنه على الرغم من كل ما يحمل أكمل كلامه بنبرة مكسورة خافتة حتى لا تستيقظ قائلًا:

«ذلك العاجز من فعل بك ذلك، الذى لا يقدر على حماية نفسه كيف سيحميكِ؟ لقد إخترتِ الجانب الخاسر و مع كل ما حدث كان إصرارك يزيد، والآن ماذا؟ تصارعين الموت!».

هربت قطرات الدمع من عيناه بعد نزاع طويل لم يتحمله لتنتصر الدموع فتغزو وجنتيه، حينما ربط على كفها بهدوء

وهو ينهض قائلًا:

«سأحرص على أن ينال ما يريد، مهما كلفني ذلك من ثمن، وبأى طريقة حتى و لو كانت بيدى»

انصرف من غرفتها بعدما علت أبواق الغضب ساحة عقله، لتندلع النيران التى لا أحد يعلم من ستحرق؟.. ومتى؟!

الفصل الحادى عشر

الألـم.. زائر يطرق بابك دون إذن، علـى الرغم من كونه زائر غيـر مرغـوب فيـه؛ إلا أن إقامتـه جبرية، لا تملك حـق طرده من حياتـك، و لا حتى إغلاق البـاب فى وجهه فهو يملك مفاتيح كل الأبـواب و يملـك حـق الدخـول دائما، هنـاك ألم زيارتـه قصيرة وأثـره مؤقت، و آخر يأتى ليغير معالم حياتك، وهناك ألم خبيث يحضـر ليسـرق زادك من الحلم فـلا يُبقى على كسـرة من خبز التمنى لتسد بها جوع روحك.. ليتركك تموت جوعًا.

ذلك الألم الخبيث قد سـيطر على أسـامة مذ فقد كاميليا، كان يزداد كلما اقترب منها ليسأل حاله لماذا هى سعيدة و أنا لا؟ و كان الجـواب منطقيًا أن السـبب هو وجـود إبراهيم ليزداد الحقد داخله، فيشـعل الألم فتيل الغضب دون أن يبوح، و كلما حاول إطعام روحه خبز التمنى؛ باغتته ردة فعل كاميليا لتسرقها من فمه ليكمل جوعه، و ها هو الآن يحترق كلما اقترب ولكنه لا يملك سبيلًا إلا أن يبقى.

ينتظر أمـام غرفة الجراحة والوقت يمضى كعادة المنتظرين و كأن عقارب السـاعة تقاوم الريح فتبطأهـا، و بينما هو غارق فى عالم الانتظار إذ بهاتفه يُعلن عن إتصال و فى وقت باكر على غير العادة، لقد كان مسـاعده أحمد، نهض أسـامة من مقعده متجها لمكان بعيد عن غرفة الجراحة ليتحدث معه، وما هى إلا

لحظـات حتى فُتِحَ باب الغرفة ليخـرج الطبيب و تبعه الممرضون بصحبـة كاميليـا متجهـون لغرفـة العنايـة ، لكـن كان هناك شخص آخر يراقب ذلك من بعيد قليلًا ، إنه جورج.

ذهـب صـوب الطبيب ليتحـدث معـه ، لاحظ وجهـه العابث ، فطلـب منـه الذهاب لغرفته ليتحدثا بعيدًا عن أعين أسـامة ، وما أن دخلًا الغرفة حتى جلس الطبيب و نظر لجورج قائلًا :

«العمليـة ناجحة و تم معالجـة مصدر النزيف ، و كانت هناك كتلة دموية تم استئصالها» ،

جلس جورج مواجها له ثم قال:

«ولماذا هذا العبوث؟ هل هناك شيء آخر؟» ، نظر له ثم قال:

«سـوف نجرى بعض التحاليل و حينما تستيقظ سوف نتأكد مـن سـلامة قدميها ، لكن عليـك أن تعرف أمر هام ، سـتخضع لعـلاج فيزيائـي لمـدة لـن تقـل عـن ثلاثة أسـابيع حتى تسـتطيع التحرك بشكل طبيعى ، و ربما لا».

ثم أعطاه صورة الأشـعة و هو يشـير إلى شـيء داخلها ، فنظر جورج و أمعن النظر ، لكنه تجمد مكانه و لم ينطق ، و بعد قليل نهـض من مقعـده متجها صوب ضوء مصباح ليرى صورة الأشـعة مرة آخرى كأنه لا يصدق ، من الواضح أنه يخشى شيء ، و كما قال الطبيب إن حركتها ستتأثر ، عاد إلى زميله و هو يقول:

«عليـك أن تُنهى فحوصاتك دون أن تخبر أحد ، خاصة أسـامة لأنه سيتعمد إيصال الخبر لإبراهيم ، أنا سأتحدث مع كاميليا» ، ثم غادر الغرفة بعد أن ترك الأوراق للطبيب.

كان تفكيره عند نقطة جديدة، ماذا لو حدث شيء لكاميليا أيضا، هذا الكابوس هو ما يدمر حياة إبراهيم و ربما سمه القاتل، فما أصعب أن تعول حياتك على أحد لا سواه و فجأة يترك يدك، حتى و لو كان لا إراديا، توجه صوب غرفة إبراهيم ليطمئن عليه بعد أن حرص على إبقائه رهن العقاقير المنومة لتنتهي جراحة كاميليا، وما أن دخل الغرفة نظر إلى النائم ثم جلس على مقربة منه، و عادت رأسه لأسئلة عدة، ماذا حدث لهم؟ كل ما خطر بباله أنها ربما سرقة و لكن تلك المسكينة التى انتهكوا شرفها، ولم تسلم حتى بعد ذلك، زهرة جمالها أيضا قطفت بتشوييها بعدما قطفوا زهرة شبابها، ثم عاد ليفكر فى أسامة، هل يجب أن يسانده فى قضيته و يحقق لإبراهيم ما يريد لو كان هناك شيء بحالة كاميليا؟

لم يكن على دراية بما يحيكه أسامة و خلف ماذا يسعى، فحينما كان يفكر جورج بذلك، كان أسامة يتحدث إلى مساعده بعيدًا عن الأنظار، والذى كان يخبره عن بعض المستجدات قائلًا له:

«سيدى.. لقد تم الأمر كما رتبت له تمامًا والخبر بالجريدة، و تم الإشارة لك بالخبر، ماذا سنفعل الآن؟»، أجابه أسامة:

«هذا جيد جدا، سوف أتصفح الجريدة بعد قليل فأنا مشغول بالمشفى، و بعد الإنتهاء من ذلك علينا أن نسرع بتحديد موعد المقابلة التليفزيونية، تابع الوضع بالمكتب و أحرص على عدم الإلتفات لمواقع التواصل الإجتماعى، فهى بدول آخرى تجدى نفعًا، لكن فى بلادنا ربما تكون نقمة لا نعمة».

فجأة علت الأصوات فى الرواق من خلف أسامة، إلتفت بسرعة ليجد بعض الممرضات و جورج مسرعين صوب أحد الغرف، أغلق الهاتف وركض مسرعًا تجاههم ليقف أمام جورج متسائلًا:

«ماذا حدث لكاميليا؟»

نظر له جورج و هو يقول:

«إنها نجوى»..

وركض مكملًا طريقه.

❖ ❖ ❖

استمر جورج فى تفكيره، على الرغم من تشتته؛ إلا أنه حاول إخفاء ذلك حتى لا ينتبه له أسامة، لم يتفق الإثنان طيلة الرحلة منذ قابله عند إبراهيم بعد زواجه، بعض النفوس لا تستطيع روحك هضمها مهما حاولت، والبعض الآخر تتقبله من أول لقاء، إنها طبيعة بشرية.

بينما هو غارق فى عالم آخر، دخلت عليه أحد الممرضات و هى تركض قائلة:

«سيدى.. لقد إستعادت نجوى وعيها منذ قليل و هى فى حالة ثورة عارمة»، ما إن سمع أنها إستعادت وعيها إنتفض جسده ونهض مسرعًا يركض صوب غرفتها و معه الممرضة، و ما أن تجاوز أسامة و قبل أن يصل للغرفة كان يسمع صراخ نجوى وسط بكائها و هى تقول:

«وجهى.. ماذا حدث لوجهى»، دخل جورج و من معه والجميع يحاول السيطرة على نجوى التى أفلتت المحاليل من يدها لتحاول

فـك الأربطـة المحيطة بوجهها ، كانت فى حالـة صدمة قوية لم يسـتطع الحضور السـيطرة عليها بسـهولة ، و ما زاد فشـلهم فى ذلك صوت بكائها و صراخها الذى لو سقط على الحجر لقسمه نصفيـن ، حـاول جورج تمالك نفسـه و هـو يمسـكها بقوة حتى يعيدهـا الفراش ، ثم أمر أحد الممرضات بإحضار حقنة مهدئة ، حاولت نجوى مرارًا الإفلات من جورج و هى تصرخ:

«أريـد مـرآة فورا!!.. أريـد أن أرى وجهـي.. أريـدد أن أررررى وجهـي» ، كبلها جـورج بكلتا يديـه حينما أحضـرت الممرضة المهدئ و قامت بحقنها وسـط توسـلاتها لرؤية وجهها ، و ما هى إلا دقائق حتى هدأت بآثر المهدئ ثم قام جورج بفحصها و ما إن انتهى حتى جلس و هو يقول:

«إهدئى يا نجوى أرجوكِ ، وجهك سـيكون بخير ، كل شىء سيكون بخير».

الكـذب.. أحيانا يكـون كمسـاحيق التجميل يلـون الواقع ليبـدو جميـلًا ، لكـن كلمـا كانـت الحقيقـة بشـعة ، كلما كان الكـذب شـفاف لا يصبغهـا و لا يرطـب حرارتهـا ، و ماذا سـيقول غيـر ذلك؟ هل لديك كلمات آخـرى تقولها فى مثل هذا الموقف؟ لا أظن أنك فج لتخبرها أن تلك الشابة الحسناء تحولت بفعل طائش لمسـخ ، ملامحه سـتطاردها فى كل مكان ، و لن تتركها عين المتابعين إن سكتت ألسنتهم.

لا يوجـد فـى المحيط من يتحمـل تلك المسـئولية مع جورج ، ومن الصعب أن يترك جزء منها لأسامة أيضا فهو فى عالم آخر ، للحظـة قـرر أن يترك حاله للإرتجال حسـب الموقـف ، فهو حتى

الآن يجهل الكثير، و لا يجد مساندة، قرر أن ينتظر كاميليا ربما تفيده، لكن ماذا إن حدث شيء لها أيضا؟ كيف سيخفف ألم إبراهيم؟ كيف سيواجه نجوى بالحقيقة؟ كيف سيعبر مع كاميليا الطريق؟.

وبينما كان يفكر دخلت إحدى الممرضات تركض فى سرعة و ذعر و هى تقول:

«سيدى.. لقد إستعاد إبراهيم وعيه و هو فى حالة ثورة يطلب حضورك»، ربما حان الوقت لمعرفة ما حدث و مواجهة الواقع.

ركض جورج مسرعًا صوب غرفة إبراهيم الذى كان يصرخ فى غضب عارم:

«أريد جورج حاااالًا، سأقتلكم جميعًا»، والعجيب أنه مع صراخه كانت هناك ضحكات متقطعة ممزوجة بكلماته، دخل جورج ليرى ذلك الموقف الصادم، إقترب منه و ما إن رأه إبراهيم حتى إنقطع صراخه و هم قائلًا:

«من تظن نفسك؟»، سمع جورج السؤال الذى أربكه تمامًا و لم يستطع نطق حرف، نظر له إبراهيم فى غضب و هو يصرخ قائلًا:

«هل سأنتظرك هنا طيلة اليوم؟ أين كنت؟ و أين كاميليا ونجوى؟»، اقترب منه جورج أكثر و هو يقول:

«كاميليا بخير، كدمات خفيفة و بعض النزيف الذى سيطرنا عليه فورا..لا تقلق، وأنا كنت عند نجوى..»، نظر جورج للأرض و بنبرة حزينة استطرد قائلًا:

«استعادت وعيها منذ قليل و هى تصرخ تريد أن ترى وجهها ، للأسف وضعها صعب جدا يا إبراهيم، و لا أستطيع مواجهة هذا وحدى، ماذا حدث يا إبراهيم؟».

شاح إبراهيم نظره بعيدًا عن جورج، نظر إلى النافذة وعلامات الألم تحفر طريقها على وجهه فيزداد هما ، أعاد عليه السؤال مرة آخرى فى إلحاح منه، دون أن ينظر له إبراهيم نطق فى حزن:

«أنا لست إلا لسان يبثق كلمات يتظاهر بها أنه ذلك الرجل، لكن كيف تستحق ذلك اللقب و أنت عاجز عن حماية من معك، زوجتك، وتلك الفتاة التى ولأول مرة تناديك أبى فتستنجد بك وتصرخ و أنت لا تتحرك.. لمااااذا؟ لأنك عاجز» ، ثم نظر فجأة إليه وعيناه غارقه فى الدموع المحبوسة و بصوت كدوى انفجار صاح:

«ماذا يجب أن يحدث أكثر من ذلك لأطلب منكم الموت؟ تكلم.. قل لي كل شىء سيكون بخير، حاول مواساتي كما فعلت طيلة السنوات الماضية، لكن لن تستطيع الآن فأنت تعلم جيدًا أنك ستكون مخطئ» ، لم يستطع جورج النطق بحرف غير أنه نظر إلى الأرض ليهرب من نظرة إبراهيم الحادة على الرغم من غرقها ببحر الدموع، حينما أكمل إبراهيم قائلًا:

«لأننى لا أملك إلا صوت؛ كان صراخي عاليا و أنا أرى زوجتى و هى على بُعد خطوة مني تُضرَب، و أنا أُتابع ابنتى و هى تُغتَصَب، فقط أصرخ، ليس طلبًا للنجدة، لقط كنت أصرخ حتى يخاف أحدهما فيأتى لقتلي».

لم يستطع جورج التحدث بكلمة، و كأن على رأسه الطير،

كان كلام إبراهيم مؤلم جدا خاصة مع تلك النبرة التى يتحدث بها ، إلى متى سيتحمل؟ و كلما حاول تجاوز عثرة تأتيه آخرى أكبر ، لقد كان مُحِق تمامًا فهو لا يملك حقا إلا الصوت.

استمر إبراهيم فى حديثه مع جورج يقول:

«ذلك الصوت.. كان يُزعج الأول و هو يغتصب ابنتى ، وكان يشتت الثانى و هو يراقب زوجتى و لا يستطيع احكام قبضته على ذلك السكين الموجه فى وجهها ، لم ينفع أحد ولم يُجدى لي نفعًا ، والأكثر ذلة هو تعليق أحدهما على صراخي قائلًا اخرس و إلا رأيت جثة زوجتك ممددة جانبك ، لم يهدد بقتلي أنا و لكن بزوجتي ، كان مُحق تمامًا فأنا لست إلا قطعتين من الثياب ملقاه على كرسي لا نفع لها».

ثم بدأ يروى له تفاصيل ما حدث دون أن ينظر له أيضا ، فقد كان وصفه لما حدث قاس جدا على مسامع بشر ، الأحداث ، نبرة الصوت ، إحساس العجز ، الفشل فى حماية أهله ، والواقع المرير الذى يعصر أبطال تلك الحادثة.

ساد الصمت قليلًا بعدما انتهى من سرد الواقعة ، فنظر لجورج الصامت المنحنى أمامه دونما كلمة مواساة ، ثم قال له:

«لهذا طلبت من أسامة تقديم طلب بتوقيع القتل الرحيم عليّ ، أكتفي بهذا القدر من الدنيا على أمل أن تكون الآخرة غير ذلك ، اخترته لأنه لن يطلب مني التوسل له ، لهذا لما أطلبه منك يا صديق الطفولة كما طلبته هى ، لن أتوسل لك كما توسلت هى ، لهذا لن تعطيني ما أطلب كما أعطيتها».

رفع جورج رأسه بحركة حادة و هو ينظر مباشرة لإبراهيم و عيناه كتلة حمراء من الدموع، و هو يصرخ به قائلًا:

«ماذاا تقول؟ ما هذا الهراء الذى تتفوه به؟ أى توسل هذا التى تتحدث عنه؟ لا تنطق بحرف آخر و إلا..»، زاد حنق جورج حينما سمع صوت ضحكة إبراهيم العابثة، تلك الضحكة التى تدل على أن ذلك العقل قد ذهب حيث لا رجعة، وسط كلامه ضحك بسخرية والتقط الحديث و هو يقول بتهكم:

«لا تنطق بحرف آخر و إلا قتلت زوجتك كما قال ذلك المجرم؟ و إلا أعاقبك بحقنة من المنوم؟ و إلا أترك الغرفة وأذهب؟ هاهاهاها.. كم أنت مثير للشفقة».

لم يعلق على ما قاله إبراهيم وحاول فعلًا الإنصراف، قبل أن يلاحقه إبراهيم يقول:

«مثير للشفقة و ضعيف، حضرت لغرفتي لتشاركني حزني أم لتطلب مني المساعدة فى مواجهة نجوى التى مات شبابها أمام عين العاجز الذى توسلت له أن يساعدها؟ أتيت لكى تعرف حقيقة ما حدث و كل ما سمعته منك نحيب و بعض الدموع التى لفظها قلبك الضعيف،

و أنا الآن فى انتظار إعلان إصابتى بالجنون بتقرير من البروفسير الكبير جورج، نوصي بتحويل إبراهيم عبد العزيز لمشفى الأمراض العصبية بعد إصابته بخلل عقلى نتيجة صدمة، هاهاهاهاا.. هيا.. انتظر».

التفت جورج صوبه و هو يقول فى غضب:

«بالفعل.. أنت مجنون، لكن لا تحزن، سأدعم أسامة فى طلبك، و سأخفى عن الجميع أنك مجنون حتى لا يتم التشكيك فى قرارك، ستصل لما تريد يا....»، لم يُكمل كلماته واكتفي بالنظر إليه، مع ابتسامة إبراهيم العريضة.. ابتسامة نصر.

الفصل الثانى عشر

الإنسان هو الكائن الوحيد الذى ميزه الله بالعقل، متوج على عرش الكائنات ليكون سيدها و أعلاها مرتبة، لكن تلك النعمة ليست لدى كل البشر، كثيرًا ما يظن الإنسان أن تمييزه بالعقل يعطيه الحق كاملًا فى تقرير كل شىء يخصه، فهذا غباء لدى البعض، أعطاك الله الحق فى قرارك بالحياة إلا ما يخص نهاية تلك الحياة، فالبعض يعتقد أن له الحق فى إنهاء حياته وقتما شاء، ليُفسر على هواه ذلك التمييز بأنه مُطلق و أنه حق من حقوقه.

ينطبق ذلك تمامًا على عقل إبراهيم الذى يأس من رحمة الخالق، الذى حاول كثيرًا التظاهر بالقوة ظاهريًا حيث أنه منهار داخليًا، و ضَعُفَ إيمانه ليذهب خلف حق ليس له، سعى لإنهاء حياته ظنًا منه أن له حق تقرير ذلك أيضا متناسيًا أن روحه أمانة من وهبه تلك الروح، و هو وحده من يملك حق إستردادها متى شاء.

كان رد فعله على جورج قوى جدا يتظاهر من خلاله بالقوة على الرغم من دموعه التى حفرت ندوب على وجهه، فقط حاول أن يُبقِى على هيبته المصطنعة، فهو أضعف فى قرارة نفسه من ذلك، حاول كثيرًا إيقاف ذلك المشهد الذى عايشه مع زوجته و نجوى عن باله لكنه فشل كالعادة، فشل فى كل شىء إلا

إكتساب عطف من حوله دون قصد.

دخل الطبيب عليه يطمئن على صحته، و ما إن إقترب من إبراهيم حتى قال له:

«كيف حالك اليوم؟»

لم ينظر إليه إبراهيم وهو يقول:

«ياله من سؤال سخيف، ترى من يُسأل عن حالي، أنا الذى لا أشعر بشئ أم أنت ؟»، جلس الطبيب و هو يبتسم فى وجهه وهو يقول:

«لقد أساءت فهم سؤالي، أنا أسأل عما لا أستطيع رؤيته، عما بقلبك، عن الحالة النفسية لا البدنية، و لو ستسألني عن حالتك البدنية سأقول أنك عدت من الموت، حينما وصلت للمشفى كان التنفس منقطع و بصعوبة حتى إستطعنا إنقاذك»

ضحك مما قاله الطبيب حيث لم يظهر له شىء، فكل أفعاله طبيعية نتيجة تلك الصدمة، فقد قص عليه جورج بعدما خرج من غرفة إبراهيم تفاصيل الواقعة، و ما يفعله و ربما أكثر من ذلك يُعَد تأثير الصدمة، حيث قال له إبراهيم:

«لماذا أتعبت حالك فى إنقاذ شخص بائس لا يستحق الحياة مثلي، يا رجل أنا أبحث عن طريقة للموت و أنت أيضا تقف فى وجهي؟!».

رد عليه الطبيب بهدوء:

«هناك ما يجعلنا نعمل على ذلك، القَسَم المهنى لإنقاذ الأرواح، الأمانة، الخوف من الذنب و معصية الخالق، فمن نحن

حتى نقرر إنهاء حياة أحد؟ من نحن حتى نهمل الواجب و نكف اليد عن المساعدة؟ لكن سأقول لك عفوا على شكرك لنا».

نظر له إبراهيم فى صمت، ثم أكمل الطبيب حديثه بسؤاله:

«أنا طبيب، أحمل على عاتقي مداواة المرضى، هذا لا يعنى أننا نعارض اللّه إن كان مُقَدّر للمريض الموت، أنا أشعر بحزن شديد إن فشلت فى ذلك، لكن ينير اللّه بصيرتي حينما أتذكر أن تلك إرادة اللّه فى أمانته».

قاطعه إبراهيم قائلًا:

«تتحدث بتلك الراحة لأنك لست بذلك العجز، لحياتك قيمة وكبيرة حيث عملك فى إنقاذ البشر، هل ستكون بتلك الأريحية إن كنت مكاني؟»، تنهد الطبيب و هو ينظر لأعلى و قال:

«من الطبيعى أن تقول هذا و يبدو لك أن نهاية العالم هى عجزك، أنا أتابع حالتك منذ سنوات طويلة و كنت أضرب بك مثلًا فى الصبر والتحمل، لم يخطر ببالى لحظة واحدة أن ذلك المقاتل من داخله غير ما يُبدى للمحيطين به، صدقني أنا مصدوم و..»

ضحك فى سخرية قائلًا:

«هذا ليس جواب سؤالي و أنت تراوغ محاولًا التأثير على الحديث بيننا، لكن حاول أن تعطيني جواب لما قلت»، نهض الطبيب من على الكرسى و تحرك للجانب الآخر من الفراش ينظر لبعض الأجهزة لا يبالى بإبراهيم، ثم إلتفت إليه و قال:

«إيماني بربي كبير فلا أيأس من رحمته، هل تظن أنك

الوحيد الذى عاش معاناة فى الحياة؟ هل تدرى السبب الحقيقى لإمتهاني الطب؟ سأخبرك شىء يجهله الكثير، ماتت أمى أمام عيني لأن طبيب قد وصف حالتها بالخطأ و كان من المفترض أن تذهب للمشفى، وحينما إشتد التعب اتصلت بطبيب آخر ليلًا قال لي سأمر عليك صباحًا لا تقلق ستكون بخير، رأيتها تحتضر أمامي، صرخت طالبًا النجدة، دون رد حتى فارقت الدنيا أمام عيني، لم أفارق مكاني ولم أبكي، لم أستطع تقبُل الواقع أنها المرة الأخيرة لنا و قد فارقتني للأبد، مر وقت قليل و حضر أبى الذى اتصلت به كثيرًا طلبا للنجدة دون رد منه، فما أن رأى ذلك تحول لجماد و قبل شروق الشمس كنت أدفن أبى وأمى».

اقترب أكثر من الفراش وهو ينحنى برأسه ناظرًا لإبراهيم أكثر واستطرد قائلًا:

«كنت عاجز عن إسعاف أمى، و كنت عاجز عن اللحاق بأبى، و أكملت حياتى دون أهل، للمحسنين و أهل الكرم، لم ينساني ربي و لم أنساه فها أنا هنا الآن، لكل منا عجزه الخاص سيدى العقيد، لكن يتوقف عجزك و قوته حسب إيمانك باللّه وإيمانك بقوتك، مع العلم أن ما قلته لن يسكن ليلة فى عقلك الفاقد لكلمة الرحمة، و كل ما تعنيه هذا الكلمة له أنها لون جديد للانتحار تطلق عليه موت الرحمة».

اعتدل مرة آخرى فى وقفته ونظر لإبراهيم الصامت والمتابع لما قاله، لكنه لم يصمت طويلًا فصرخ يقول:

«كنت تمشى، كنت تمسك كتاب بيدك، كنت تركض خلف حلمك لتساعد أمك فى صورة المرضى، لم ترى ابنتك

تُغتصب أمامك، لم ترى زوجتك تُضرب أمامك، لو كنت مكاني كان سيكون الوضع مختلفًا لهما، لكن أنا ماذا؟ أنا لست بشيء، عجزي غير ما قصصت على الرغم من تقديري لسعيك ولشعارات الإيمان الجميلة، لكن ربك ساعدك، ربي لا».

ابتسم الطبيب مما زاد من حنق إبراهيم و قال:

«لا أملك تعقيب على كلمتك الأخيرة خاصة أنك تنوى معصية الله و تنتحر، و كما قلت لك حديثي لن يسكن ليلة بعقلك، وأظن أنك لم تسمعه، حسنا.. هل تريد مني شيء قبل أن أذهب؟»

نظر له إبراهيم و قال:

«أريد أن أذهب لنجوى».

❖ ❖ ❖

حينما تفقد كل شيء؛ يمكنك فعل أى شيء دون عقبة التفكير، و إن كان حديثك عن إبراهيم؛ فقد خسر هيبة الرجل و تهشم قناعه تحت قدم نجوى و كاميليا، فهذا ما كان يظن حيث الشعور بالذنب بكل ما حدث لنجوى، وعجزه الذى منعه من حماية زوجته، فهيبته كانت أخر حصونه التى سقطت فى يد اليأس.

كان تحمله مسئولية ما حدث لنجوى يعصف بروحه، لا يدرك أن الأمر بعيدًا عنه و لكن استغاثتها وصراخها حينما طلبت منه لازال يفتك بسمعه، ولا يدرى كيف يُسكِت هذا الصوت، لكن تفكيره فيما مضى غلب تفكيره فيما سيأتى وأصبح ما يفعله مجرد إرتجالات شبح مهزوز.

لهذا قرر مواجهة نجوى على الرغم من الإحساس القاتل بالذنب، ربما يُبقى على ما تبقى له أو كواجب لتلك السنوات والتى توجتها بلقب أبى، دخل غرفتها بصحبة أحد الممرضات فوجدها تجلس على الفراش تبكى و من حولها الممرضات تتابعن حالتها و تقمن بواجب الحراسة أيضا، ما إن دخل حتى تبعه ضابط الشرطة قائلًا:

«حمدالله على سلامتكم، هل أستطيع أن أتحدث إليك قليلًا»، لم يعره إبراهيم انتباه فى البداية، ثم نظر ناحية نجوى وهو يقول:

«أريد أن أجلس مع ابنتى قليلًا وبعدها نتحدث فيما تريد، هل تسمح لي»،

تَفَهّم الضابط وضع إبراهيم ثم أومأ برأسه مستجيبًا و ترك الغرفة ليجلس بالرواق إلى أن ينتهى إبراهيم من زيارتها، لم تبرح عيناه وجهها، تلك الزهرة التى فاح عطرها جوانب منزله لسنوات، التى لم تشتكى يوما من شىء ولم تتأخر يوما عن مساعدتهما، تلك الفتاة التى كانت له إبنة بعد ما مر من عمر دون نسل يخلفه، ما يراه أمامه من الصعب تحمله و لكن يجب أن يكمل الطريق ليكون هناك على مقربة منها الآن.

كانت تبكى بشدة وما إن لاحظت دخوله حتى قالت له بصوت باكٍ تقشعر له الأبدان:

«أبى.. أرجوك قل لهم أن يعطونى مرآة، أريد أن أرى ما يشعل الألم بوجهي»، كان وقع تلك الكلمة على إبراهيم عنيف بعض

الشئ، لقد زاد من شعوره بذنب كاد يفتك به، فهى لازالت تلقبه أبى و حتى اللحظة تطلب منه المساعدة، نظر إلى الأرض دون أن ينطق فأكملت بكاء و هى تقول:

«الوجع وجعان.. لقد نهش ذلك الذئب كرامتي و هذا الندب مخفى عن أعين المارة لا يراه إلا من سمعه، هذا الوجع ربما أخف مقارنةً بذلك الندب البارز فى وجهي والذى جعل مني مسخ، كيف سأواجه الناس؟ كيف سأرى الشمس دون أن تخفى الشمس عيناها عنى خلف السحب؟ كيف سأستمع لتغريد الطيور و هى تبثق علي اللعنات فقط لأنني ذو وجه ذميم؟ بالله عليك يا أبي قل لي كيف أتحمل؟»

رفع عينيه ليواجه نجوى حيث حبس دموعه بالقوة الجبرية خلف قضبان عينيه فلم يدعها تثور لتعلن ضعفه و تكسر ما تبقى من كبريائه، كانت تبكى و بقوة حتى أن من بالغرفة أجهشوا بالبكاء من الموقف، لكنه فى هدوء قال:

«كم عام و أنا هنا جليس هذا الكرسى؟ كم مرة قمتى بمساعدتى لدخول فراشي؟ كم شخص واجهت أمامك ممن سخروا مني؟ هذا الكرسى أصبح نقطة نهاية القصة، المقعد الذى أنتظر عليه الرحمة بالموت، لأنه لا سبيل لعلاجى منه أو لتركه لي ربما إعتاد صحبتي، وجهك سيعود كسابق، جراحات التجميل تحمل الكثير و أنا سأحرص على ذلك».

كانت تعرف من داخلها أنه لن يتركها كالعادة، و لكن الوضع هنا مختلف، كيف ستواجه العالم حتى يحدث ذلك إن حدث، فحتى الآن لا أحد يرى مدى التأثير، و ينتظر الأطباء

اليـوم لفك الأربطة والوقوف على حالة وجهها و عينها ، مواجهتها ذلك الموقف وحده مرعب جدا ، مرعب حد الرغبة بالموت منه.

نظرت لسقف الغرفة والألم يزداد فى وجهها قائلة:

«لم أملك تلك الإرادة يومًا ، أنا فتاة بسيطة كنت أحلم أحلام مثلي، لكن انقلب قطار العمر على رأسه لأجد نفسي رهينة عار وتشـوه، أنا لسـت مثلك يا أبى لن أتحمل، الآن فقط شَـعُرت بما تحمل ولما تطلب الموت، أشعر و أتفهم».

ارتفعت نبرة صوته قليلًا و هو يرد عليها:

«لا أريـد أن أسـمع عبـارات اليـأس الباهتة تلك من لسـانك، سيعود كل شىء كما كان و ستعبري تلك المحنة فأنت أقوى، ذلك الشـعور قـوى و صعب و خاصـة بالأيام الأولـى، تغلبي عليه بسرعة حتى لا تصبح حياتك صعبة».

ضحكت فى هيسترية وسط دموع لا تتوقف وقالت:

«حياتـي!!.. أيـن هـى حياتـي؟ لقد ضاعـت مع بكارتـي التى إنتُهِكـت بلحظـة ظـلام، ذهبـت مع جلـدي المحتـرق بقطرات النار، أين تلك الحياة؟.. أين؟؟؟!!»، لكنها و بصوت مهزوز عادت لتقول:

«كان هذا الدرس الوحيد الذى لم أتعلمه منك، كيف أهزم المحنة، و ها هو الإمتحان دق بابي دون أن دراسـة علومك، حان وقـت إعلان فشـلي و رسـوبي يا أبـى، أنا متعبة جـدا!!! و أريد أن أنام، أتركني يا أبى أتركنى أحاول الهرب قبل موعد كشـف الحقيقة».

أومأ برأسه فى تفهم ثم طلب من الممرضة أن تصحبه خارج الغرفة، و قبل أن يخرج ظهر جورج أمام الباب الذى تفاجأ بوجوده عند نجوى، لكن إبراهيم لم ينظر له حتى، حاول جورج التحدث له، لكنه طلب من الممرضة أن تكمل طريقها لغرفته فهو يريد الراحة.

وما أن وصل لباب الغرفة استوقفته كلمات نجوى وهى تقول:

«أبى.. لا تتحمل ذنب ذلك، كان ذلك مُقَدَّر لي سواء أمامكم أو بمكان آخر، صدقني لا ذنب لكما»، لم ينظر و لم يطلب من الممرضة الإلتفات، لكنه نظر للأرض فى إنكسار و خيبة، فمهما قالت لن يسامح نفسه على ما حدث لتلك الفتاة.

لم يكن يفكر بكلمات نجوى بعدما خرج، لكن هناك شىء آخر لم ينساه، كيف سيواجه كاميليا؟ فهى لم تأتى حتى الآن و هو لم يطلب الذهاب لها، على الرغم من أن جورج قال له أنها بخير و تشعر ببعض الألم فى الرأس نتيجة الضربة

قطع تفكيره وصوله للغرفة و قد تبعه ضابط الشرطة والذى قد أجل حديثه معه لحين الخروج من عند نجوى، طلب من الممرضة وضعه قرب النافذة و إستأذنها بصحف اليوم لو لديها بعض الوقت، فإستجابت لطلبه و غادرت الغرفة و تركتهما معا.

جلس ضابط الشرطة و بصحبته شرطيان، و قبل أن يبدأ بالحديث باغته إبراهيم قائلًا:

«شابان لم أرى أى منهما من قبل، لو كنت أملك يد واحدة فى تلك اللحظة لقتلتهما دون تردد، صدقني أصعب ما قد تمر به فتاة هو ضياع زهرة شبابها، فما بالك بضياع جمالها و بكارتها

فـى لحظة واحدة»، لم يعقب الضابط على ما قال و ترك إبراهيم يقـص عليـه الواقعـة، حتـى انتهـى من السـرد طلب منـه وصف الشـابان، فحاول قدر المسـتطاع إعطاء وصف مـن خلال رؤيته المحدودة فى الظلام، ثم طلب منه بذل أقصى ما يمكنه ليحقق العدل لتلك الفتاة، فوعده الضابط بذلك ثم خرج.

دقائق و عادة الممرضة و هى تحمل الصحف، ثم جلسـت جواره و هـى تسـتأذنه فى القراءة، فأجابها بنعـم، و ما هى إلا دقيقة حتى استوقفها خبر تقدم محام مشهور لطلب للمحكمة الدستورية لإقرار قانون ينص على السـماح بتطبيق قتل الرحمة للحالات المسـتعصية والتى لا أمل من نجاتها، و قبل أن تنتهى علت ضحكاته وهو يقول: «بداية النهاية..».

❖ ❖ ❖

القـرار فـى عاصفة اليأس دائمـا ما يذهب نحـو النهاية، تلك العاصفة تحجب دائما رؤية المنطق، رؤية النور، تُعمى العقل عن طريق النجاة فتنجرف معها دون أن تشـعر نحو الهاوية، التى و إن سقطت فيها لا منجى منها.. أبدا.

حاول إبراهيم أن يُعطى للموت صبغة يجعله لطيفًا أو مقبولًا، ثوب مزركش يراه الناس غير أسود الانتحار، لكن لم يدرك أن لا يوجـد فرق مـا بين الحق فى الانتحار والحـق فى القتل الرحيم فكلاهما قرار، هل تختلف نهايته؟ كلاهما موت، بيده أو بيد غيـره كلاهمـا قرار بإنهـاء النفس، فما ذنب السـائق إن كنت تسير وسط الطريق السريع و أنت مَعْصُوب العينين؟.

إنه ينتظر الآن ما ستسفر عنه دعوى أسامة، مع العلم أنه لو كانت لديه يد واحده سليمة كما قال للضابط لم يكن ليقتل الشابان، بل كان سيقتل نفسه، إنه ينافق من حوله، فقد كان يصرخ لا لطلب النجدة بل لإستفزاز المجرمان، لقد وصلت حالته العقلية للتخبط، يكذب على نفسه و لا يصدق الحقيقة على الرغم من سطوعها لن يراها.

ما أن أشرقت الشمس حتى استيقظ إبراهيم الذى لم يجد زوجته أيضا بجانبه، كان ذلك أقصى ما يُشعِره بالأسى، ولكن توقف للحظة عن التفكير حيث راوده شعور غريب، هل يكذب جورج بخصوص كاميليا؟

انتظر قليلا حتى حضرت الممرضة، و ما إن دخلت الغرفة حتى قال لها:

«أريد أن أذهب لغرفة زوجتى الآن»، نظرت إليه فى تعجب قائلة:

«سيدى لقد استيقظت للتو أمهلنى دقائق أتفقد حالتك وبعدها سنذهب»، نظر لها بعصبية و هو يصرخ و يقول:

«لا أريد أن تتفقدي صحتى، لا أهتم بذلك، أريد أن أذهب الآن»، لكن قبل أن تجيبه كان جورج واقفًا على باب الغرفة فقاطع حديثهما و هو يقول:

«نفذى ما قاله فورًا».

كانت تلك الجملة تكفى حتى يهدأ قليلًا، لكنه قال:

«حسنًا لننتهى مما تفعلي و نذهب»، دخل جورج الغرفة ثم توجه صوب النافذة ليقف أمامها تمامًا عاقدا ذراعيه خلف ظهره

وهو يقول:

«لازالت نائمة، لقد قلت لك أنها بخير و أننا سيطرنا على النزيف، تم سحب الدم المتجمع على الجمجمة و هذا ما لم أخبرك به بسبب ثورتك، وأيضا لأنها جراحة بسيطة لم تستغرق دقائق»، صُعق إبراهيم مما سمع و صرخ يقول:

«كيف تجرؤ على فعل ذلك؟ كيف تخفى عني هذا الأمر؟ كيف.. كيف؟»، نظر إليه جورج ثم صاح قائلًا:

«لأنك لن تتحمل و ستذهب مسرعًا إلى هناك و هى بحاجة للراحة و أنت كذلك، ربما ليس من حقى كصديق، لكن من حقى كطبيب، عذرا فأنا أمارس عملي سيدى العقيد».

ثم نظر إلى الممرضة و هو يكمل بنفس اللهجة:

«لقد قلت لكِ نفذى ما طلب، أنا من يصدر الأمر هنا فهو فى حالة لا تسمح بتفقد صحته، دعيه يذهب ليطمئن على زوجته الآن»، تعجب إبراهيم من أسلوبه فقد كانت المرة الأولى التى يعهده كذلك، من الواضح أنه يحمل الكثير بقلبه و ربما أيضا ذلك الغضب بسببه، لكنه لم ينطق و بالفعل أوضعته الممرضه مقعده المتحرك ثم ذهبا دون أى كلمة.

كان ما يشغل بال إبراهيم هو كاميليا، فهى سبب حياته حتى الآن، و كلمة جراحة ترهبه جدا، حتى و إن كان شىء بسيط فجورج لن يكذب عليه فى ذلك و ربما كان أيضا مُحق فى إخفاء ذلك، لكن يبقى الأمر كبير عند إبراهيم فكل شىء يخص كاميليا.

ما إن وصل غرفتها حتى طلب من الممرضة وضعه جوار فراشها حيث كانت نائمة، و بالفعل استقر جوارها و تركته الممرضة و ذهبت تنتظره بالخارج، كان نظره ثابت على وجه كاميليا الشاحب، فما عايشاه فى الأيام القليلة الماضية كاف جدا ليُذهِب عقل حكيم، لكنه كان قلق أيضا و ينتظر أن تستيقظ حتى يتحدث إليها.

مر الوقت ببطء شديد عليه وهو يجلس رهن الانتظار، لكن قطع حالة انتظاره دخول أسامة والذى ما إن رأى إبراهيم حتى قال له:

«حمدا لله على سلامتكم، كيف تشعر الآن؟».

رد عليه بصوت خافت:

«لست بخير، أنتظرها تستيقظ و بعدها ربما أُجيبك»، جلس أسامة فى المقعد المواجه له فى الجانب الآخر من الفراش، وما إن جلس حتى قال له:

«أشكرك يا أسامة لأنك نفذت طلبي، لا أدرى كيف أُعبر لك عن شكري صدقًا»، إبتسم له أسامة و هو يقول:

«لا تشكرني على ذلك فهذا عملي، و بعد أيام قليلة هناك لقاء تليفزيونى لمناقشة تلك النقطة و أظن أنه من الجيد أن تشارك بإتصال هاتفى فسيكون ذلك مؤثرًا»، ثم نهض و ذهب صوب النافذة خلف إبراهيم و قال:

«على الرغم من إعتراضي الشديد على ما تفعل، لكن أنا أحاول لأننى أتفهم جيدًا معاناتك خاصة الآن بعد شعورك بالعجز عن حماية عائلتك»، كان وقع تلك الجملة عنيف على إبراهيم،

فهى الحقيقة نعم و دائما يخبر بها نفسه، لكن وقعها شديد جدا من شخص آخر حيث تحمل إتهام أكثر من شعور بالأسف.

لم يعقب و أكتفى بالصمت و قبل أن يلتفت أسامة، استيقظت كاميليا و نظرت يسارها لتجد إبراهيم يجلس فقالت:

«هل أنت بخير؟».

كانت كلماتها متثاقلة و تخرج من حنجرتها تجر فى أقدامها حجارة، لكن ما لفت إنتباهه أكثر ملامح وجهها التى تفسر كم هى تتألم، فقال لها بهدوء:

«وسط كل هذا الألم تسألين عني! أنا من كان من المفترض وجوده مكانك لا أنتِ، و لن أسألك كيف حالك فأنا أرى بعيني حالك»، شاحت بنظرها للإتجاه المعاكس ثم أكمل قائلًا:

«منذ قليل أخبرني جورج عن تلك الجراحة، لقد أخفى عني بحجة القلق علينا»، لكنها قاطعته و هى تسأله:

«أين نجوى؟»، كانت لهفتها شديدة و كأنها تذكرت للتو و حيث أنها فقدت الوعى فلم تعرف نهاية الأمر حتى الآن، لكنه نظر فى الأرض و قال بصوت حزين:

«فى غرفة قريبة، لكنها ليست بخير»، قص عليها ما لم تتابعه، و فجأة شعرت ببعض الألم يضرب رأسها فصرخت تقول:

«أين جورج، أحضروا جورج»، أسرع أسامة صوبها يسألها فى لهفة:

«ماذا حدث؟ هل تتألمين؟» ثم نظر إلى إبراهيم و قال له:

«كان من الممكن أن تخفى ذلك قليلًا من باب الرحمة فهى لازالت تتألم»، لكنه تفاجئ بردة فعلها و هى تصرخ و تقول:

«لمـاذا يخفى هذا ويحمله وحيدًا؟ أنت لا تُدرك كيف تسـير الأمـور بيننـا فمن الأفضل أن ترتاح»، شـعُر بغصـة قوية فى قلبه فهو لا يتحمل منها كل هذا الجفاء، لكنه تمالك نفسـه و ذهب صـوب الباب كى يسـتدعى جـورج، و قبل أن يخـرج ظهر جورج على باب الغرفة مسرعًا يقول:

«هل تشعرين بألم؟» أومأت برأسها بإيجاب، ثم أمر الممرضة بإحضار بعض المسكن، ثم إلتفت لهما قائلًا:

«سـيبقى هذا الألم معهـا لبضع أيام نتيجـة الكدمة والتجمع الدموى، و ليس له علاقة بالجراحة، اطمئنوا».

جلسوا يراقبوا الوضع و هى تهذى بإسم نجوى ثم قال جورج:

«ستكونى بخير.. سنفعل ما يلزم لا تقلقى».

نظـر إليـه إبراهيـم و لـم يُعقب فـلازال هناك قلق يـراوده من طريقة جورج و لكن لم يدع ذلك يشـغل عقله المشغول بزوجته، ثم قال أسامة:

«دعنـا نتركهـا تسـتريح قليـلًا يـا إبراهيـم»، فإسـتجاب له وتحرك معه دون أن تبرح عيناه زوجته، ثم قال:

«سـأعود يا كاميليا»، فقال جورج:

«إذهب لتستريح وأنا سأباشر عملي ولا تقلق»

ومـا إن خرجا حتى طلب مـن الممرضة الخروج.. و أغلق الباب عليه بصحبة كاميليا.

❖ ❖ ❖

الفصل الثالث عشر

منذ اللحظة الأولى بالحياة و نحن فى حرب مع الشيطان، فكانت أول معاركنا طعنة بإصبعيه على الجانبين فنبكى و نحن نستقبل الحياة، و تظل تلك المعارك لا منتهية بين الشيطان و بين ذرية آدم فإنه مُنْظَر إلى يوم الدين.

الجاهل هو من لا يدرك أن الشيطان هو عدوه الأكبر بتلك الحياة، فيتسع صدره لوسواسه و لا يحاربه بالإستعاذة بالله من همزاته و وسوسته، ينسيك ذكر ربك و تذكر رحمته، و أن روحك ليست ملكك و لكنها أمانة الله، فلا ينفعك يومها قولك إنى كنت من الجاهلين.

غاب عن ذهن إبراهيم طيلة سنوات أن ما حدث له إختبار من خالقه، لقد أراد أن يسمع مناجاته، و لكنه جَهَل ذلك واستسلم للغواية حتى أصبح فى فجوة لا قرار لها، معتمة حد انعدام البصيرة، و يأس من رحمة الله.

توقفت سيارة جورج أمام منزل العقيد لينزل منها بصحبة كاميليا و ممرضة لتعتنى بهما خلال تلك الفترة، ثم أخرج إبراهيم على مقعده المتحرك، و ما أن نزل حتى تذكر تلك الليلة ثم نظر لزوجته التى حاولت الهرب من الحديقة بخطوات سريعة لداخل المنزل، لكنه لاحظ خطواتها المتثاقلة الغير منتظمة فنظر لجورج سائلًا:

«هل قدم كاميليا بها شيء لا أعرفه أيها الطبيب؟»، استمر جورج فى دفع المقعد وأجابه:

«نعم.. ستخضع لبعض العلاج الفيزيائى والتمارين البسيطة، الكدمة كانت فوق مركز الحركة و لها تأثير خفيف على قدميها».

غضب إبراهيم و هو يقول له:

«توقف.. ماذا حدث لك؟ كل يوم أكتشف شيء جديد كنت تخفيه عني، و ماذا بعد؟ هل هناك شيء آخر؟»، أوقف جورج المقعد ثم تحرك للأمام ليواجه إبراهيم و قال:

«أنت تخاف من أقل شيء يذكر تجاه كاميليا، و أنا ألتمس لك العذر بهذا، غير حبك لها الكبير و ما عايشتماه سويا، لكن لا يوجد شيء يستدعى القلق، و لم أُخفى عليك شيء إلا لصالحكما، عليك أن تعرف ذلك قبل أن تتهمني دون سبب.»

لم يرد عليه إبراهيم وما أن لاحظ جورج صمته حتى عاد خلف المقعد ليكملا طريقهما داخل المنزل، لكن هنا قال إبراهيم:

«هذا المكان أصبح كابوس لا ينتهى، هل تذكر كيف كانت تلك الحديقة فى الماضى؟ كم من الوقت قضينا هنا نضحك ونغنى؟ أصبحت تلك الحديقة الآن شاهد على عجزي كرجل».

نظر للأرض فى حزن و هو يعبر نفس البقعة التى شهدت المعنى الحقيقى لعجزه، و نفس البقعة التى سقطت فيها زوجته أمام ناظريه، لكنه لم يستطع أن يمرر بصيص نظرة و لو خافتة تجاه البقعة الأكثر إيلاما، حيث كانت نجوى، شعر جورج بذلك حينما أحنى رأسه للأرض فأسرع بدفع المقعد قليلًا حتى

لا يشعره أنه إلتقط تلك الإشارة و يصل لباب بيته.

ما إن دخل من الباب حتى بحث بعينيه عن كاميليا والتى إختفت من الأجواء، فطلب من الممرضة أن تحضر له بعض الماء لكن جورج أشار لها بالتوقف و هو سيحضر الماء، دخل جورج إلى المطبخ ليجد كاميليا بالزاوية تنهار من البكاء، فأقترب منها جورج واضعا يده على كتفها قائلًا:

«سينهار إن رأى ذلك، و أعلم جيدًا كم هو صعب جدا أن تعبرى هذا الطريق، علينا أن نجمع ما بقى لدينا من صبر والأمل حتى نرى الطريق»، استمرت فى بكاءها دون صوت حتى لا يشعر فقالت:

«ماذا عنه؟ أنا لا أفكر بشئ سواه الآن، لا أدرى حقا كيف أتصرف بعد تلك الحقيقة التى لن تتغير»، اختنق صوته دون أن يدرى وحاول أن يتمالك نفسه ثم قال:

«أنا معك، والرب معنا، لأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِي أُنَجِّيه. أُرَفِّعُهُ لأَنَّهُ عَرَفَ اسْمِي. يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَعَهُ أَنَا فِي الضِّيقِ، أُنْقِذُهُ وَأُمَجِّدُهُ. مِنْ طُولِ الأَيَّامِ أُشْبِعُهُ، وَأُرِيهِ خَلاَصِي»[1] أمسك كوب من الماء وسكب به البعض ثم عاد لها قائلًا:

«يجب أن ننتظر وضع نجوى أولا و من بعدها نرى كيف ستسير الأمور».

نظرت له و هى تمسح دموعها و قالت:

«كان لابد أن نبقى بجانبها الليلة، كيف ستعبر ذلك

(١) سفر المزامير ٩١: ١٤-١٦.

وحدها؟»، نظر جورج للأرض و هو يقول:

«والدتها هناك و بعض من الأصدقاء، و أنا سأذهب أيضا، يكفى ما مر بكما تلك الأيام و كلاكما يحتاج للراحة»، ثم سمع صوت إبراهيم هو يطلبه فأشار لها أن تمسح دموعها و تتبعه بعد قليل.

ما إن إقترب منه حتى قال له إبراهيم:

«هل تُحضر الماء من نهر النيل؟ المطبخ يَبْعُد عشر خطوات و أنت عشر دقائق لتُحضرها، هل هى بالمطبخ؟»، سقاه جورج الماء و هو يجيبه:

«كاميليا؟! نعم تتفقد المطبخ و تحضر لك بعض الحساء، ستأتى حالًا»، و ما إن انتهى من كلمته حتى ظهرت أمامه قائلة:

«هل تريد شىء مع الحساء؟»، كانت تنطق كلماتها دون أن تنظر له، تعجب فى صمت من تصرفاتها منذ خرجًا من المشفى، فهو يتابعها جيدًا و يرى التغير الكبير، كان ما يدور فى عقله أنها لازالت تتألم مما حدث نفسيًا قبل جسديًا، فما عايشته صعب جدا على أى إنسان.

أجابها بالنفى ثم عادت للمطبخ دونما كلمة، فتابع حركتها و قدمها التى تجرها خلفها و كأنها تجر خلفها صخرة، ثم نظر لجورج سائلًا:

«ماذا عن قدمها؟ هل ستخضع لعلاج فيزيائى؟»، أجابه:

«نعم.. سأصحبها للمشفى ثلاث مرات أسبوعيا و قبل نهاية الشهر ستكون أفضل من الآن، لا تدع الأمر يؤثر عليك»، ثم

اقترب منه وانحنى و هو يكمل حديثه:

«كل ما حدث مني بالمشفى كان خوفًا عليك، أعلم جيدًا كيف ستصبح حالاتك إن أخبرتك بذلك، الأمر بسيط عندى لأنى طبيب، عظيم عندك لأنها كل ما لديك، أتمنى أن تصفح عن هذا و لا تدع الأمر يؤثر علينا».

نظر إليه و هو يقول:

«سمير.. لكن اهتم بكاميليا ونجوى أولا و بعدها لنا حديث آخر».

لم يفهم جورج المقصود من تلك الجملة الأخيرة، بقيت عالقة فى ذهنه دون أن يسأل، لكنه حيث يعلم صديقه جيدًا، فهناك أمر ما سيسعى خلفه.. والأقرب هو صفقة موته.

❖ ❖ ❖

ذلك الوقت الذى يخفى خلفه أمر مستور تنتظر كشفه؛ دائما ما يكون وقت مسموم، يحمل لعنة على كل حركة من حركات البندول، على الرغم من أن الإنسان يجرى خلفه لمعرفة ستره، إلا أن شبح الخوف من هذا السر مخيف حد الهلع.

كان حال نجوى فى ذلك اليوم أكثر من ذلك، فكثيرًا ما كانت تلح فى طلب المرآة لترى وجهها، لكنها الآن تخشى تلك اللحظة، خاصة أنها لن ترى وجهها قبل المحيطين، هذا كان أكثر ما يؤلمها، فهى كانت ترسم بمخيلتها دائما كيف سيبدو ذلك الحرق من تحت الغطاء، و خوفها من المجتمع المحيط بها كان خوف قاتلًا.

دخل جورج بصحبة الطبيب ليجد نجوى تجلس على السرير، تضم ركبتيها بذراعيها على صدرها، و رأسها تتكأ على الركبتين، و بلكاد ترفع طرفها تراقب الحضور، اقترب منها جورج و قبل أن ينطق باغتته قائلة:

«هل حان الوقت؟ هل سيرى الناس كيف تبدو بشاعتي الآن؟».

اقترب منها و ربط على كتفها فى حنان و هو يجلس جوارها قبل أن يقول:

«نجوى.. لا تخافي من شىء، مهما كان الضرر أعدك سيمر و سيكون كما كان من قبل، فقط عليك بالصبر».

أخذت تبكى مع كلماته فى حين اقتربت منها والدتها تجلس على الطرف الآخر تبكى على ما قالته، قبل أن تهز نجوى رأسها بإستجابة و بدأ جسدها ينتفض شىء فى شىء مع إقتراب الطبيب منها، نهض جورج حتى يفسح المجال للطبيب و أمر الممرضات بإغلاق الباب، ثم باشر الطبيب عمله.

و ما إن بدأ بنزع الأربطة حتى بدأت تشعر بالألم الشديد وتصدر أنين ألم، و فجأة عندما انكشف الجزء العلوى من وجهها شهقت أمها بقوة من هول المنظر ثم صرخت:

«ابنتى.. ابنتى»، و نهضت من مكانها تنظر للحائط و هى تصرخ فذهب إليها جورج مسرعًا محاولاً تهدأتها و هو يتمتم ببعض كلمات لم يسمعها أحد سواهما، فى حين صرخت نجوى من الألم تقول:

«كفى... كفى أرجوك وجهى يحترق»، كان كل الموجودين

بالغرفـة فـى حالـة صدمـة مما أصبـح عليـه وجه المسـكينة ، وبالفعـل انتهـى الطبيب من فك الأربطة فنظـرت الأم لوجه ابنتها حتى صرخت و هى تبكـى:

«ما هذاااااا؟!! أين وجه ابنتى بالله عليكم؟ إنها لازالت صغيرة علـى ذلك ، بـالله عليكم لماذا.. لماااااذا؟!!» ، و ما أن رأت أمها تصـرخ و تجثو على ركبتيها فى إنهيار حتى صرخت هى الأخرى قائلة:

«أريد مرآة.. أريد مرآةةةة فوراااااااااا».

اقتربت اللمرضة فى ذعر تمسـك مرآة ، ثم وضعتها أمام وجه نجوى ، ثم صرخت فى ذعر:

«لا أرى بعينى اليسسسسرررى.. ما.. مااا. أين وجهى؟!!» وأخذت تصـرخ و أطاحت بالمرآة بعيـدًا من هول ما رأت ، وأخذت تصارع الحضـور و تضرب بيدهـا كل ما يقف أمامها؟ هرع جورج و معه الممرضـات إليها فأمسـكوها ثم أمر أحـد الممرضات بحقنها بعض المنوم ، وفى هذه اللحظة سـقطت أمهـا علـى الأرض تماما بعدما كانت تجثو على ركبتيها تنظر لابنتها ، فارقت الوعى من تلك الصدمة و من حال ابنتها.

انتبـه لهـا جورج فذهـب مسـرعا يتفقدها ، ثم طلـب من أحد الممرضـات أن تحضر سـرير متحرك فورا وتضعهـا عليه لنقلها فى غرفة آخرى و فحصها ، وسـط صراخ نجوى الذى كان يهدأ رويدًا رويدًا حتى غابت عن الوعى.

طلـب الطبيب من الممرضة الأخرى أن تبقـى جوارها وإخلاء

الغرفة من أى أدوات حادة او أى شىء من الممكن أن تستعمله لإيذاء نفسها ، فالذى يمر بتلك المعاناة أول ما يفكر به هو الهرب من الحياة بالموت.

خرج جورج من الغرفة و هو حزين تمامًا ، ربما قد تخيل الوضع لكن ما وجده كان أكثر إيلامًا ، خاصة مع علمه بفقدان عينها اليسرى أيضا ، و ما أن مر بمقعد حتى جلس عليه منحنى الرأس، و هربت منه الدموع دون أن يشعر، فقد بدأ عقله بعرض فيلم وثائقى عن حياة نجوى، بداية بالمرة الأولى عند تعيينها بالمشفى، مرورا بعملها كمساعدة لأسرة إبراهيم، كم كانت نشيطة و هادئة أيضا ، كانت تحمل الكثير من الأمل، أخذ يتذكر كيف كانت تحكى عن حياتها المؤلمة و هى تسخر منها و تضحك على ما يحدث لها بعد وفاة والدها؟ كيف كانت سعيدة مع كاميليا؟ كيف كانت تساعد الجميع دون مقابل، و فى هذه اللحظة إنهار تمامًا و صرخ قائلًا:

«لماذا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!؟».

انتبه له الطبيب الذى خرج للتو من غرفتها ثم ركض مسرعًا نحوه، ساعده على النهوض و حاول تهدأته، وسط بكاء جورج و هو يردد نفس السؤال، ثم قال الطبيب:

«إهدأ يا جورج، أرجوك لا تفعل».

«دفعه جورج بهدوء و هو يقول:

«كيف ذلك؟ أنت لا تعرف شىء، هذه الفتاة ابنتى التى لم ينعم عليّ بها الرب، كانت البهجة فى حياتي حينما كنت

أحزن، كم ساعدتني دون أن تشعر بالإبتسامة والدعابة، أنت لا تعرف كم من الألم عايشنا، أنت لا تعلم شيء.. لا تعلم».

أفلت نفسه بالكامل من الطبيب و هو يركض مسرعًا و لا يدرى إلى أين، وهو لا يرى حتى الطريق من الغيث المنهمر على جفنيه، لا يرى و لا يسمع حتى، كل ما كان يبحث عنه الآن هو مكان ليبقى وحيدًا.. و لا يعرف أين يكون.

❖ ❖ ❖

حاولت كاميليا كثيرًا الاتصال بجورج دون رد، كان ذلك يبعث الكثير من القلق داخلها فعد وعدها بالإتصال بها فورًا، لكنه لا يجيب مما زاد خوفها، كانت تفكر بالاتصال بأم نجوى و لكنها كانت تخشى ردة فعلها، ربما المكلومة من حزنها تقول شيء يزيد من مرارة إحساسها بالذنب، فتغاضت عن ذلك فى انتظار جورج.

بينما هى غارقة فى التفكير دخلت الممرضة لتقطع عليها خلوتها بعد الإستئذان فقالت:

«سيدتى.. سيدى رفض تعاطى العلاج قبل حضورك»، أومأت براسها فى تفهم و ذهبت معها لغرفته، ما إن دخلت حتى قال لها:

«منذ عودتنا من المشفى و أنت لستِ مهتمة بشئ، لا أراك إلا قليلًا و لحظات خاطفة بعد فترة الصباح، كل ما إهتدى له عقلي أن هذا تفادى اصطدام أو عقاب، سأتقبل كلاهما، لكن هل هناك سبب آخر غير ذلك؟».

اقتربت منه ثم جلست على طرف فراشه و هى تمسك يده قائلة:

«لا هـذا و لا ذاك و لا شـيء آخـر، الأمـر غير ذلـك، ربما ما حـل بنـا لازال عالق بين حوائط عقلـي و لا تغيب تلك الصورة عن خيالي لحظة، و أكثر ما يقلقني اليوم هو نجوى»، إنتبه أن اليوم هـو موعد فك الأربطة عـن وجهها و جورج لم يتصل و لم يحضر، فباغتها سائلًا:

«هـل حاولـتِ الاتصال بجـورج؟»، قالـت له و هى تهز رأسـها بإيجاب:

«كثيرا!!.. دون رد و هذا ما يزيد قلقي».

طلـب منهـا أن تعـاود الاتصال مـرة آخرى، لكن هـذه المرة كان الهاتف خارج التغطية، فصرخ قائلًا:

«هذا الغبى كيف يفعل بنا هذا و هو يعلم جيدًا أننا ننتظر منه خبر؟ لا أسـتطيع فهم ما يدور بعقله هذه الفترة و كأنه شـخص آخـر»، و ما أن انتهى من جملته حتى دق جرس الباب، فأشـارت للمرضة أن تذهب بسرعة لترى من بالباب.

لقد كان هو.. فى حالة لا توصف، عيناه كغروب شمس يوم حـار، حمـراء داكنه ملتهبـة، و يبدو على هيئته أنـه متعب جدا وكأنـه حضر ماشـيًا، نهضت كاميليا مسـرعة حينما سـمعت الممرضة ترحب به، و ما إن رأته هكذا صُعِقت من هول المنظر.

صرخ إبراهيم يقول:

«لا تقف عندك و تعال هنا أولا».

قبـل أن يُغلـق فمـه كان جورج أمامـه بتلك الهيئـة، جحظت عيناه مما رأى، فقال له:

«جورج!!.. ماذا حدث لك؟ أين كنت؟».

اكتفى بالنظر له دون رد ، بينما كاميليا امسك يده حتى جلس على المقعد المجاور لها ، وأشارت للممرضة بإحضار بعض الماء بسرعة ، و فورا ذهابها إنفجرت عينا جورج بالبكاء و قال:

«لم أتحمل المواجهة فور انتهاء الطبيب، لم أستطع مواجهة الموقف لأنى ضعيف و هربت من المشفى، المسكينة أيضا لم تتحمل، أمها لم تتحمل، فقدت عينها اليسرى و تحول وجهها لقطعة واحدة محترقة، لا تستطيع تمييز أى شىء منها ، كيف ستتحمل تلك المسكينة».

نظرت كاميليا إلى الأرض و هى تضع كفيها على وجهها و كأنها ترى المشهد أمامها و تحاول أن تخفى نظرها ، بينما تجمد إبراهيم و لم ينطق بحرف، أكمل حديثه و هو يصف تلك اللحظات التى مرت عليهم بالمشفى بصوت ممزوج بالبكاء والعويل، فهذا هو جورج، رجل بالغ مسن و طبيب مشهور، لكن بداخله طفل صغير لا يتجاوز العشر سنوات.

عادت الممرضة بالماء لكنه لم يستطع شرب قطرة واحدة ، و أمسك بالكوب فى يده حينما قال إبراهيم:

«هل من أمل لعودة وجهها كما كان؟».

نظر إليه جورج و هو يحاول مسح عينيه من الدموع و قال:

«صعب و لكنه ليس بالمستحيل، لكن عينها اليسرى انتهت، سنعرضها غدًا على طبيب متخصص بجراحات التجميل، لكن تلك الجراحات نسبة نجاحها أكبر بالخارج و لـ..» قاطعه إبراهيم فى حزم:

«لا تضيع الوقت و فور تجهيزها نفسيًا إبدأ فى تحضير إجراءات السفر والعلاج على نفقتنا الخاصة مهما تكلف الأمر»، هنا قالت كاميليا:

«المشكلة الآن ليست فى العلاج هنا أو بالخارج، المشكلة الأكبر هى نجوى و كيف ستعبر تلك الصدمة، لهذا طلبت منك أن نكون هناك».

نظر إليها جورج قائلا:

«كان صعب عليكِ الحضور و أنا على علم تام من هى نجوى بالنسبة لكِ، أنا لم أتحمل النظر إليها من الصدمة، تلك الفتاة تم تدميرها دون أى شفقة».

ثم نظر إلى إبراهيم و قال:

«أنت الوحيد الذى كنت ألجأ إليه فى تلك المواقف، و أتيت بابك و طلبت منك الدعم، ماذا فعلت؟ لم تستطع حتى تهدئتي، و أنت غير مُلام فما تمر به كثير منذ سمير، لكن أنا فى تلك اللحظات ضعيف بدونك، والأن أنت تريد الهرب من الدنيا وتتركني وحيدًا».

قاطعه إبراهيم فى غضب قائلًا:

«ماذا سأفعل لك؟ هذا أكبر أخطائي، لم أتركك تواجه شىء بدوني حتى و أنا عاجز و قعيد كنت أمسك يدك وأُرشدك للطريق، أنا لست مُلزم بإطعام طفل بلغ الخمسون و يزيد، لا تتخذ هذا سببًا لتتبرأ من قرارك».

نظرت له كاميليا تقول:

«أى قرار؟».

نظر لها جورج و حاول التحدث لكن قاطعه إبراهيم قائلًا:

«لقد قرر جورج دعم أسامة فى طلب توقيع القتل الرحيم علىّ».

نهضت كاميليا من على المقعد و هى تنقل نظرها ما بينهما و لا تصدق ما سمعت، فهى لا تدرى بهذا القرار، وكأنها الآن تحارب وحدها، فكيف ستقاوم التيار؟

❖ ❖ ❖

على عكس توقع إبراهيم، لم تتحدث كاميليا عن ما قاله بخصوص جورج، عدة أيام مرت و هى على نفس الوتيرة، تجالسه صباحا و تبدل ثيابه، ثم تطعمه و من بعدها الصحف، و فى الأخير عقاقيره و تذهب و تترك باقى المهام للممرضة الجديدة.

لكن هذا الصباح كان مختلفًا، لقد تعمد أن يغضبها كى تُخْرِج ما بداخلها حينما حضرت لتُطعمه فقال لها:

«هناك بعض الأمور التى يجب أن نتناقش حولها بخصوص القضية»، نظرت إليه وهى تقول:

«عليك أن تُنهى طعامك».

لم تُعجبه تلك الإجابة فقال فى حزم:

«اليوم سننهى معًا الحديث عن هذا الموضوع، لا أريد أن أُزيد حالة الصمت التى تأكل الأرض بيننا بعدما أصبح يومنا كالصحراء، نكتفى هنا فهذا التجاهل والصمت لا يفيد أحد».

نظرت للأطباق أمامها وهى تقول فى هدوء أثار غضبه أكثر:

«هنـاك الكثير من الوقت حتى يتم الفصـل فى تلك الدعوة، أما بخصوص قراري فلا حاجة لي بقرار، أنت قررت كل شـيء وحـددت الطريقـة والمـكان والزمـان وبـدأت بكل شـيء دون علمـي، و منـذ ذلك اليـوم لم تسـنح لنا فرصة للنقاش، وحسـب معرفتي التامة بك فليس لنا نقاش فى تلك النقطة، وربما ستعيد نفس الكلمات التى سمعتها منك بالمشفى عن ضرورة رحيلك».

صرخ بها وهو يقول:

«هـل لديك حـل آخر؟ لقـد انتهى كل شـيء، والأن أصبحت لاشـيء، حتى حديثك معى تغير منذ تلك الليلة، لقد سـقط قناع رجولتي الزئيف تحت قدميك والأن أنا عارٍ تماما من هيبتي، لهذا تتعاملين معي وكأني لست على قيد تفكيرك حتى».

نظـرت لـه فى دهشـة مما سـمعت، فقد كان آخر شـيء من الممكـن أن يقولـه، كيف لـه أن يفكر بزوجتـه هكذا؟ هل تعاملـه بجفـاء لأنها لا تراه رجـلًا؟ كانت تلـك الكلمات عنيفة عليهـا وخـارج المتوقـع منـه، أربكتهـا حتى أنها أسـقطت أحد الأطباق أرضًا و هى تحاول النهوض ثم قالت فى غضب:

«أنـت!!.. ماذا تقول؟ هل تظن أنني أعاملك بطريقة جافة لأنك كمـا تقول؟ لا أصدق ما سـمعت، لالالا.. لقـد جُننت تمامًا و من الصعب أن أجادلك بهذا، لكن سـأقول لك شيء واحد، بحياتي كلهـا حتى يـوم موتي الذى لا يعلمه إلا الخالـق لن يكون هناك بعيني سـوى رجل واحد و هو أنت، أنت لسـت مُلام على ما حدث لي و لنجوى، لسـت مُلاااااام يا إبراهيم ولكنك تجعل من الأمر ذريعة لتكمل طريقك نحو الانتحار».

اكتفى بالنظر إليها بعدما تعمد إثارة غضبها، كانت نفس الطريقة التى اعتمدها للإيقاع بجورج حتى قال له نعم سأدعمك، لكن الخصم هذه المرة أصعب و أقوى و يستطيع المراوغة جيدًا لأنها تعرف نقاط ضعفه و قوته، وتعرف أسلوبه، ولكن هذا الحديث كان مختلفًا. حاول أن يتكلم لكنها وضعت أصابعها على شفتيه لتمنعه من الحديث الذى يزيد من غضبها و يُشعرها أنها أمام رجل آخر، ثم نظرت له و قالت:

«لا تنطق بتلك التفاهات مرة آخرى، أنا سأنسى ما سمعت فورًا، وعليك أن تعرف أن بالي مشغول جدًا بنجوى التى تركت المشفى بالأمس و منذ ذلك الحين لا تجيب على هاتفي، ولم تسمح لي حتى بزيارتها مرة، و لا أستطيع مواجهة أمها المسكينة، أليس هذا بكافٍ لأكون مهمومة و أختلى بنفسي ولو قليلًا؟!!».

لم يقتنع تمامًا بما قالت و لكنها حاول أن يجعله سبب مُقنع لحالتها البائسة خلال تلك الأيام حتى لا يُغضبها أكثر من ذلك فهو يضغط عليها بما لا تُطيق، إكتفي بمتابعتها و هى تجمع الأطباق لتذهب للمطبخ، وقبل أن تذهب قال لها:

«لقد قلت لجورج بالأمس قبل أن يذهب أن يحاول الوصول لنجوى فقال لي سيمر عليها الليلة قبل أن يأتى هنا، و سيتصل بنا هاتفيا من هناك كى نتحدث معها»، لم تنظر له واكملت ما تفعله و قالت:

«و هل تظن أنها ستقابل جورج؟ لقد رفضت ذلك من قبل».

قبل أن يجيبها كان أسامة يتصل بهاتف كاميليا، فترك ما

بيدها والتقطت الهاتف لتجيبه و قالت:

«صباخ الخير يا أسامة، كيف حالك اليوم»، رد عليها:

«أنا بخير، و أنت كيف حالك؟» أجابته أنها بخير حينما كان عقلها يتسأل ما سر تلك المكالمة فى هذا الوقت المبكر؟!

أيقظها من التفكير صوته و هو يقول:

«أريد أن أتحدث مع إبراهيم»، فأقتربت منه و ضغطت على مُكَبر الصوت حتى يتحدثا، فقال له إبراهيم:

«صباح الخير يا أساامة، ماذا لدينا هذا الصباح»، أجابه أسامة فى تهكم:

«دائما فى عجلة من أمرك، لكن دعني أخبرك، غدا فى التاسعة مساءًا سأكون على التلفاز فى حوار مباشر بخصوص قضيتك، سيحضر هذا الحوار بعض الضيوف حيث سيكون نقاش من الجانب القانونى والطبى والدينى حول موضوع القضية، أريدك أن تحضر هذا الحوار و أن تجرى مداخلة هاتفية، ستكون مهمة جدا لنا تلك المداخلة».

كانت تلك الكلمات عنيفة جدا على نفسها، و أدركت للتو أن أسامة لا يحاول تنفيذ طلب إبراهيم الصعب والغير مقبولًا دينيًا و لا قانونيًا، لكنه يحاول جاهدًا الوصول لهدف إبراهيم والتخلص منه، هنا شعرت برجفة قوية فى جسدها و صرخت قائلة:

«ماذا تقول أنت؟ أى حوار و أى اتصال هذا؟ هل جننت؟».

قاطعها إبراهيم قائلًا:

«حسنا يا أسامة سأحرص على ذ...»، و قبل أن يكمل أخذت

الهاتف من أمام فم إبراهيم لتقول لأسامة:

«أنت.. لن أغفر لك هذا أبدا لأنك تتلاعب بي، لقد أخبرت جورج أن هذا الأمر مستحيل والأن تحاول مع هذا المستحيل ليصبح حقيقة؟».

حاول أسامة التحدث والتبرير لكن فى تلك اللحظة ظهر على الشاشة إتصال آخر.. كانت نجوى.

تسارعت دقات قلبها أكثر فور قراءة إسمها و قالت:

«سأنهى المكالمة الآن فنجوى تتصل و أنا أنتظر هذا الاتصال منذ يومان»، و دون وداع أجابت إتصال نجوى لتُنهى إتصاله، على الرغم من لهفتها لمعرفة أخبارها، تجمدت الكلمات على شفتاها و كأنها مربوطة فى حلقها، هل كانت تحت تأثير صدمة ما قاله أسامة؟ أم لازال حديث زوجها يؤثر عليها؟ أم مواجهة نجوى نفسها كانت صعبة.

بضع ثوان مرت دون كلمة من أحد، قطعتها نجوى قائلة:

«أمى..»، إختنقت كاميليا بالدموع بعدما سمعت تلك الكلمة، كانت نبرة الصوت فى حد ذاتها يقشعر لها البدن، وبصوت مختنق أجابتها قائلة:

«نجوى.. كي..ف.. كيف حاالك؟»، فور ما سمعت نجوى صوتها بكت بصوت خفيف و كادت الكلمات تغرق فى بحر الدموع لكنها أنقذت البعض منها كى تجيبها قائلة:

«لم أستطع الرد على إتصالاتك المتتالية، سامحيني أرجوكِ فالعتمة هنا كثيرة، و عين واحدة لا تكفى لغيث لا يتوقف،

واليوم فقط رأيت الطريق و كان لابد من التحدث لأبي».

نظر إللى كاميليا فى تعجب، كانت كلماتها مبهمة تحمل ضباب كثيف يحجب رؤية المعنى، ربما ذلك الأمر طبيعى فى حالتها تلك فما تمر به ليس بالقليل، لكنه تكلم قائلًا:

«ابنتى الجميلة.. المنزل مظلم جدًا بدونك، على الرغم من صدى ضحكاتك التى تملئ كل زاوية و كل قطعة أثاث، لكن أنا غاضب جدًا لأنك تركت المشفى الآن، ك...»

قاطعته و هى لازالت تبكى و صوتها واهن تقول:

«كان يجب أن أذهب، كيف سنرى الطريق يا أبى من خلف الأبواب المغلقة، ما بين اللون الأبيض المحيط بى بالمشفى والذى لا يتناسب مع الظلام الساكن بروحي، كان يجب أن أذهب»، لم يفهم إبراهيم ما تقول و لكنه شعر بشئ تخفيه بداخلها و لا تود الإفصاح عنه، حاول التكلم لكنها قاطعته و هى تكمل:

«الآن فقط أفهم ما بداخلك، حجم المعاناة التى تحملها داخلك والتى عايشتها معك لسنوات طويلة، لكنى لست مثلك يا أبي»، لكنه هنا صرخ بها قائلًا:

«نجوى.. ما الذى تحاولين قوله؟ لماذا أشعر أن حديثك هذا يخفى شيء أخشاه؟»، بكت بشدة و صوتها لازالت يضعف و يضعف فقالت:

«أنا فتاة بسيطة حالمة، لست مثلك فى الشخصية و لا قوة التحمل و لا مواجهة العجز، لم أتحمل فقط النظر لوجهي مرة و ل...»، صرخت بها كاميليا و شعرت بنفس شعور إبراهيم، قالت:

«نجـوى.. لا تفعلـى، لا يا نجوى أسـتحلفك باللّه»، كانت ردة فعل نجوى صادمة، فقد ضحكت وسط موجة البكاء و حاولت رفع صوتها كى يصل لهما:

«لـم أرفض طلبك يومًا، لكن لقد خرجت للطريق بالفعل قبل أن أتحدث معكما، اللون الأحمر يحيط بي الآن، أبى العزيز.. لقد كان بسـيط جدًا وسـأذهب بوجعي و عجزي و أنتظرك هناك ي..» صرخا سـويا فى محاولـة لمعرفة أين هى و ماذا فعلـت: لكن صوتها كان يضعـف أكثر وبدأت تهـذى بكلمات غير مفهومة وسـط حديثها، صرخـت كاميليا كثيرًا دون رد من نجـوى فتركت الهاتف جانب إبراهيم و هرعت لهاتف المنزل تتصل بجورج وهى تقول:

«أستحلفك باااللّه يا جورج رد على اتصالي»، سمعتها نجوى فقالت:

«انتهـى.. الـوق.. الوقت يـا أمى، دقائـق و.. و أعبر للشـااطئ الآخر، أبى.. لا تح.. تحزن فأنا أنتظرك و.. و سـامحني.. ضعفي، سـامحيني يا أمى، تا....تذكريني فى دعاااءك ليغفر لي.. اللّه ما فعلت، أستود...»

صـرخ جـورج ينـادى عليها فى نفـس الوقت التـى صرخت فيه كاميليا فى إنهيار:

«لاااااااا يا نجوى.. لاااااااااااااااا».

فجأة سـمعا صوت إرتطام هاتفها بالأرض وسط موجة عارمة من صراخ كاميليا و إبراهيم دون رد منها، و فجأة أصبح الصوتان صوت واحد.. بعدما سقطت كاميليا أرضا وسط صراخ إبراهيم

❖ ❖ ❖

الفصل الرابع عشر

ماتت نجوى..

لتموت روح الشباب تحت دعس الاغتصاب.. والبلطجة، غاب الأمان وتفشى الظلم ليصطاد كل يوم من على الطريق روح بريئة، لم تكن نجوى الأولى وربما ليست الأخيرة، وتبقى آفة المعاناة تأكل من عشبي فتبكى العذارى وتنوح الثكالى بين أطلال الذكريات.

مشهد مهيب من أمام قبر نجوى، لم تقتصر الجنازة على الأهل والأقارب والأصدقاء فقط، من يعرفها من قريب أو من بعيد، بائع الخبز المجاور لبيتها حضر ليودع إبتسامتها الصباحية، بائعة الخضروات التى كانت تُحضر لها أدوية السكرى، كل من يحمل لها ذكرى كلمة، مداعبة، ابتسامة، عطف، حضروا جميعا للوداع الأخير.. عدا إبراهيم.

زادت حالته النفسية سوء، صدى كلمات نجوى الأخيرة كان يهتك غشاء أذنيه لتحمل داخل رحمها نطفة الذنب، لم يقتصر الأمر على شعوره بالذنب بتعرضها لإغتصاب و تشوه، لكنها إختارت الحق فى الانتحار، لأنها روح بريئة ضعيفة غير قادرة على مواجهة ذلات اللسان، لن تتحمل أطفال الشوارع وهم يبثقوا عليها الكلمات سخرية منها، لن تستطيع صبرًا على إيحاءات المحيطين بها أنها تعرضت للاغتصاب، فهربت لعالم آخر لا يرى فيه الأرواح عجز بعضهم، و لا يتحدثوا عنك أمامك

و خلفك بما لا تطيق.

علـى الجانب الآخـر كاميليا من أمام قبرها ، تمالك نفسـها حتـى غـادر الحضـور جميعا و لم يبقى سـواها وجـورج، فى تلك اللحظـة جثـت علـى ركبتيهـا و أخذت مـن تـراب الأرض لتضع على رأسـها فى حركة صدمت جورج الذى أسـرع محاولاً منعها ولكنها إسـتمرت حتى خارت قواها بيـن يدا جورج لتبكى على ذراعه و هى تقول فى قهر:

«يا اللّه.. لماذا كل هذا الألم؟ لماذا تختبرنا بمن نحب يا اللّه؟ نجووووى».

ساعدها على النهوض و قال:

«أرجووكِ كفى.. حالتك الصحية لا تحتمل ذ..».

نظرت له ثم دفعته بكلتا يديها و هى تصرخ قائلة:

«لا أرررريد أن أعيييييش، لقد إكتفيت من هذه الحياة، لقد اكتفيت» ، اقترب منها و هو يذكرها قائلًا:

«و ماذا عن إبراهيم؟!» ، وضعت يديها على رأسـها و هى تنظر للسماء و تقول:

«ماذا فعلت بحياتي حتى تكون العاقبة بتلك القسوة؟ و لازلت سأتحمل حتى موته؟! إننى أضعف من ذلك.. سااعدنى يا اللّه».

سـبح جـورج فى تلك اللحظـة فى بحر ذكرياتـه عندما وصل لبيـت نجـوى، كانـت تجلـس فـى زاويـة غرفتها وسـط بركة مـن الدماء بعدما قطعت شـرايين يدها اليسـرى بشـفرة كانت جوارها ، و بين قدميها هاتفها ، و على فراشها ورقة مكتوب بها:

«سامحوني جميعا.. لقد انتهيت حياتي فى تلك الليلة، سامحوني و تذكرونى بالدعاء».

كان المشهد صادم، فسالت عيناه بالدموع دون أن يشعر وسط صراخ أمها و أخواتها الصغار وبعض الجيران، وبعد دقائق وصلت سيارة الإسعاف ليحملها المسعفون إلى السيارة، كل هذا دون أن يتحرك خطوة واحدة و لم ينتبه حتى الآن أنه يبكى.

بعد مرور عدة دقائق انتبه أنه وحيدًا بالمنزل، فخرج مسرعًا صوب المشفى، كان على أمل و هو يجرى بسيارته مسرعًا أنها ستكون بخير ويسعفها المسعفون، و ما إن وصل حتى إرتجل وركض مسرعًا لداخل المشفى، حتى وصلت عيناه لذلك الجمع حيث ميز منه والدتها و هى تقف أمام الطبيب ثم صرخت بإسمها و غابت عن الوعى وسط صراخ المرافقين، هنا فقط.. عند تلك النقطة أصبح الخط مستقيم لتتوقف إشارة الأمل و ينقطع حبل التمنى ليجثوا على الأرض.

انتشلته كاميليا من بحر الذكريات و هى تسأله:

«جورج.. ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟»، أومأ برأسه لها بالإيجاب ونظر صوب قبر نجوى دون أن يخبرها أين كان بالذكريات فهى لا تعرف أنه ذهب لها، ثم نظر إليها وهو يقول:

«لقد ذهبت بعيدًا بعض الشىء، و كنت أسأل نفسي سؤال حينما ناديتني، كيف سيمر علينا قطار إبراهيم؟!»، نظرت إلى نفس القبر و تقول فى حالة انكسار:

«إنه أسرع قطار سيمر عليّ، ستكون نهايتي على قضبانه»،

لم يفهم جورج ما قالته فى حين إلتفتت صوب باب الخروج بعد أن ألقت على نجوى وداعها الأخير.. وانصرفًا.

❖ ❖ ❖

استقبل الإعلامى المشهور صديقه المحامى المعروف أسامة بحفاوة، ثم جلسًا للتشاور حول موضوع الحلقة التى ستنطلق مباشرةً بعد قليل، لقد كانت تلك خطته من البداية أن يستعمل الإعلام فى سبيل تحقيق ما يريد، كان يعلم جيدًا مدى صعوبة ما يصبو له، و على الرغم من ذلك كان الدافع للفوز به قوى.. جرح ينزف منذ زمن.

أحضر أحد العاملين بالمكتب القهوة لهما، و قبل أن يرشف رشفته الأولى قال الإعلامى له:

«هذا الموضوع شائك جدًا و سوف يسبب جدل واسع بالشارع، على الرغم من كل ذلك قبلت التحدى فأنت تعرفني منذ زمن، صائد الأحداث، لكن عليك أن تنتبه فضيوفي اليوم لن يدعوك تعبر فى سلام»، ثم ضحك بعد تلك الجملة و أخذ يرشف فى قهوته و هو ينظر لأسامة الذى قال:

«بالعكس فهذا لا يقلقني، و ربما دافع جيد فأنت تعلم أنا من هواة المعارك المتكافأة و لا أهوى منافسة نفسي، أعدك بأنها ستكون مناظرة قوية تليق بك»، ثم ابتسم و أكمل قهوته و بعدها التقطت هاتفه محاولًا الاتصال بكاميليا لكن دون رد.

توجها بعد ذلك لموقع التصوير حيث اجتمعا بالضيوف، أولهما طبيب متخصص بجراحات المخ والأعصاب والعمود

الفقـرى، والثانى أحد شـيوخ و علماء الأزهر الشـريف، والثالث نائب و عضو بلجنة الدستور والتشريع بالبرلمان، تبادل الضيوف التحية قبل أن يقترب منه الشيخ قائلًا:

«هـل أنت مُدرك لوضع مـا تطلب؟ على ما أظن أنك على دراية لفقة الشـريعة فى بلادنـا، لكـن نلتقى بعد قليل»، ابتسـم له مع إيماءة خفيفة برأسـه و كأنه يقول أوافق على التحدى، فتركه الشيخ و ذهب لمقعده دون أن ينظر له.

جلـس كل الضيـوف فـى أماكنهم بعـد الترحيـب و تحدث معهم الإعلامـى عن الحلقة و بعض الكلمات التى كانت تحمل معنـى تهدأت الأعصاب أمام الشاشـة لكن دون أن يشـير لذلك مباشـرة، و بعد أن إنتهى من ذلك أبلغه مُعد البرنامج أنه سينتقل على الهواء بعد لحظات.

بالفعل بدأت الحلقة مـع ترحيب الإعلامى بالمتابعين و تقديم السـادة الضيوف، ثم إستهل بمقدمة عن موضوع البرنامج تحدث فيها عن معنى موت الرحمة و قال:

«ربمـا يجهل الكثير من المتابعين عن ماهية هذا المصطلح، و يظـن البعـض أن اليوثيجيـا أو الموت الرحيم هـو لفظ حديث ظهـر مؤخـرًا، لكـن تـم الإشـارة لهـذا المصطلـح فـى العصر اليونانـى، حيث أشـار المؤرخ سـوطونيوس الـذي وصف كيف مـات الإمبراطور أوغسـطس بسـرعة وبدون معانـاة في أحضان زوجته ليفيا، مما حقق «الموت الرحيم» الذي كان يرغب فيه[1]».

(١) المصدر/ويكيبديا.

ثم نظر إلى ضيفه الطبيب و سأله:

«ما هو الموت الرحيم طبيا؟»، بدأ الطبيب بالترحيب بالمتابعين والضيوف أيضا ثم إستطرد قائلًا:

«هو فعل أوممارسة تُؤدى للحد من آلام الأشخاص الذين يعانون من مرض مؤلم وغير قابل للشفاء، أو عجز في الجسد، و تم تصنيفه إلى ثلاثة أنواع الشائع منها نوعان و هما الطوعى والغير طوعى، فالنوع الأول يتم بناء على طلب المريض و تم الإعتراف بهذا النوع فى بعض البلدان مثل بلجيكا، لوكسمبورج، هولندا، سويسرا، بعض ولايات الولايات المتحدة مثل أوريجون وواشنطن، أما الغير طوعى و هو بعدم موافقة المريض، حيث عدم أهليته للقرار سواء كان غائب عن الوعى أو غير مسئول عن قراراته، والغائب عن الوعى يكون فى حالة موت الدماغ، والغير مسئول عن قراره مثل حالات الإعاقة الذهنية التى تسبب خطر على المجتمع».

انتقل الحديث بعد أن أوضح الطبيب ماهية المصطلح من وجة نظر طبية بإستفاضة إلى الشيخ للتحدث عن رأى الدين حول تلك النقطة، فبعد التحية والترحيب كمن سبقوه، قال:

«بسم اللّٰه الرحمن الرحيم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، كما قال عز وجل فى محكم آياته، بسم اللّٰه الرحمن الرحيم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ صدق اللّٰه العظيم.

إن قتل النفس سواء كان بواسطة الشخص نفسه زاهقًا

لروحه أو بطلب ذلك من أحد المحيطين به سواء كان طبيبًا أو صديقًا وغيرهم هو سواء، و هو ما يُسمى بالانتحار، فالانتحار في الإسلام هو قتل الشخص نفسه عمدًا، ويعد جريمة ومعصية يأثم فاعله، وهو حرام اتفاقا، قال الله تعالى: "ولا تقتلوا أنفسكم". إن النفس هى ملك لله عز وجل، وتلك الحياة هى هبة الله للإنسان، فليس له أن يستعجل الموت بإزهاق الروح؛ لأن ذلك تدخل فيما لا يملك، و تعاليم الدين الإسلامي تؤكد على أن الإنسان في الحياة يعيش مرحلة عابرة، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرة التي يجازى فيها الإنسان يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأن هذه الحياة فترة اختبار أي: دار امتحان وابتلاء يختبر بها الخالق عبده، و عليه التسليم لأمر الله وقدره، وعدم الجزع، ولا اليأس من رحمة الله.

وفي الحديث عن ثابت الضحاك قال، قال رسول الله ﷺ: ومن قتل نفسه بشيء عذب به في نار جهنم[1] ، قال ابن حجر: ويؤخذ منه أن جناية الإنسان على نفسه كجنايته على غيره في الإثم لأن نفسه ليست ملكا له مطلقا، بل هي لله».

و ما إن انتهى الشيخ من كلماته حتى نظر إليه أسامة والذى كان يتحين الفرصة ليبدأ كلامه، كانت تلك المناظرة مختلفة عن مرافعاته بالمحكمة، فهناك القانون يناظر القانون، لكن هنا المعركة بين عدة أطراف مختلفة و كل محارب يحمل عتق

(١) المصدر /فتح الباري شرح صحيح البخاري حديث رقم: (٦٢٧٧)، ص: ٥٤٨.

الدفاع عن لواءه، و فى هذه اللحظة أعطى الإعلامى الحق لأسامة كى يبدأ حديث، و كما فعله سابقوه فعل، ثم قال:

«تعقيبا على ما قاله فضيلة الشيخ، الكثير من الدول وعلى رأسهم فرنسا تفصل ما بين الحق فى الانتحار والحق فى موت رحيم، فهذا شق و هذا آخر، حيث أقرت أن لا حق للإنسان فى الانتحار فهو مُحرم سماويًا و مُجرم قانونيًا فى حالة فشل الشخص فى قتل نفسه فيحاكم بعقوبة قتل نفس، و تلك النقطة حاضرة بجميع القوانين وليست الفرنسية وحدها.

لكن هناك حالات يعجز عنها الطب كما ذكر ضيفنا الطبيب كحالات موت الدماغ، المريض فى هذه الحالة ميت بعد توقف وظيفة المخ، و طبيا موت المخ الكامل هو موت الإنسان بالتبعية فلا أمل بعودته للحياة، بعض الحالات تبقى مُعلقة على الأجهزة مما يستنزف أموال و يُهدر أماكن لعلاج حالات آخرى فى حين أن الشخص ميت و بهذا يُعذب بعدم فصله عن تلك الأجهزة كى يموت و يُدفن، و قد تناول بعض المشايخ تلك النقطة أنه من الجائز و تحت إشراف و موافقة الطبيب المعالج نزع الأجهزة عن المريض فى مثل هذه الأحوال بشرط أن يكون فعلا المخ قد مات تمامًا و لا أمل فى عودته للحياة، لماذا تناولنا تلك الحالة وحدها و هناك العديد من الحالات المقاربة لها مثل أورام المخ و حالات العجز التام والغير مأمول بعلاجها كما فى حالة موكلى؟ لماذا نُعَذّب هؤلاء و لا نمنحهم الراحة؟ لماذا نُهدر أموال فى علاج؟ و أماكن ربما تفيد آخرين فى حين أن عودتهم لا رجاء منها.

و لـدى تعقيـب آخير لفضيلة الشـيخ الفاضل، قـال النووى إن من قتل نفسه أوارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافـر، ولا يقطـع له بالنار، بـل هو في حكم المشـيئة، رواه مسـلم فـى صحيحه، و نحن لم ندخل فى علـم الغيب و لا نعلم ما هـى عاقبة قاتل نفسـه طالما أنه لم يكفـر و لكنه على معصية حتى مشيئة خالقه، لماذا لا تتركه لربه؟».

نظـر له الشـيخ فى تحدٍ شـديد و على وجهـه ظهرت علامات الحنق من جملته الأخيرة وقال:

«الروح هى أمانة اللّه، هو من منحك إياها و هو وحده صاحب القـرار بذلـك، و بالفعل و كمـا ورد بالحديـث أن المنتحر غير بكافر حيث أن الكفر هو الشـرك باللّه و إنكار وجوده بعبادة غيـره أو يُلحـد، و لكـن المنتحر فى مشـيئة اللّه، و عليه عذاب جهنم، يغفر له اللّه أو لا تلك فى المشيئة و لا علم لمخلوق بغيب، لكنه و بكل الأحوال سينال عقابه من اللّه بالنار، و رجوعًا لما ذكرتـم عن الحـالات المرضية، من أنت لتحكـم عن ذلك و لا يعلم الغيب إلا اللّه؟ هل اللّه ليس بقادر على أن يشفى عباده؟ مهما كان بهـم من مرض؟! و كما اسـتهللت حديثى فى البداية بقول اللّه عز و جل، بسم اللّه الرحمن الرحيم:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ صـدق اللّه العظيم.

مـا أوتيييتم مـن العلم إلاااااااا قليل، العلـم عند الخالق هو من يعلمه لخلقه، و عجائب و صُنع اللّه تدل على ذلك، فهو خالق الكون و مـن على الكون، هو من يُحييك و يميتك و إليه ترجع، فمن يحى

العظام و هى رميم ليس بقادر على شفاء عباده؟ حاشى للّه».

شَـعَرَ أسامة أن الشيخ قد وضعه فى زاوية الحلبة وانقض عليه بالضربـات و لا يجـد منـه منـاص، فلم يعقب على مـا قال و أخذ يفكر فى هجوم عكسـي، و هنا حان دور النائب فى الحديث، و بالفعل و بعد التحية تحدث قائلًا:

«طبقًا للمادة الثانية من الدستور المصرى والتى تنص على:

«الإسـلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسـمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع».

لن أُطيل عليكم و أسـتخدم الخطـب الرنانة، لكن بموجب هـذه المادة فـإن الجهـة الموكل لهـا بالفصل فى تلك المسـألة الفقهيـة والتـى تخـص الديـن هو مجمـع الفقهـاء، و يتـم تمرير قرارهـا للمحكمـة الدسـتورية للإقـرار، و كمـا هـو معلوم أن قرارات المحكمة الدسـتورية نهائية لا طعـن لهاو لا يجوز إعادة النظـر فيها مـرة آخرى، كما أن نصوص القانـون خالية من بند صريح بخصوص مسألة موت الرحمة، و لا أظن أن مجمع الفقهاء أو القانون سيسمح بجواز ذلك الطلب كحق للمواطن».

فى هـذه اللحظة كان هناك ضيف على هاتف البرنامج يريد أن يُجرى مداخلة، فأجابه الإعلامى بالرتحيب ثم قال:

«مـا هـو رأيكـم بموضوع الحـوار و كيف ترى طلـب الموت الرحيم؟»، أجابه المتصل بعد التحية:

«سـيدى.. أنـا لـن أُعَقب علـى الموضـوع دينيـا و لا قانونيا لأننى مواطن بسيط، لكن سـأتحدث عن النظرة الإنسانية، لماذا نترك

المريض يعانى لشهور و ربما سنوات و ينفق ما لديه دون أمل، هل هذه رحمة الله؟ نحن نطلب سن قانون يمنحه الحق و لا يعتبره منتحر أو على معصيه، و مثال بسيط عقوبة الإعدام، كثيرًا ما يتم إعدام شخص برئ بدون وجه حق فقط لأنه كان متواجد بموقع حادث بتوقيت خاطئ، و أدانته الأدلة على الرغم من أنه ليس الفاعل، و لكن نصوص القانون الغير رحيمة تُنهى حياته و ربما بعد موته تظهر الحقيقة و يُعدم شخص برىء، إن أراد الله أن ينجيه ألن يفعل؟ لماذا نترك قانون كقانون الإعدام و فيه شك بقتل نفس بغير حق، و لا نعامل المريض الغير مشكوك فى شفاءه طبيا بشىء فى علم الغيب ربما لن يحدث؟ أعتذر جدًا عن الإطالة و أشكركم».

ما إن أنهى المُتصل حديثه حتى لمعت عينا أسامة، فقد أضاف هذا الرجل نقطة جديدة بخصوص الإعدام و لماذا نقوم بإعدام شخص ربما يكون بريئًا و نتكر مريض يعانى بدون موت؟ لماذا لا نسن قانون يعامل المريض كالجانى بالإعدام مثلا.

أسرع بإلتقاط الكلمات من فم المتصل ليضعها فى فوهة لسانه و إستعد لإطلاقها قائلا:

«سؤال وجيه.. المريض لم يطلب الانتحار و لكنه يريد قانون يعامله بشفقه و ينهى حياته بطريقة شرعية، كثيرًا ما يُظلم أشخاص بقانون الإعدام هذا و يعتبر قتل خاطئ بعد ظهور البراءة، أليس هذا قتل بغير حق؟ المريض يطلب موت رحيم و..»

قاطعه الشيخ بعصبية قائلًا:

«عن أى رحمة تتحدث أنت؟ إنه انتحار و أنت تريد أن تُلبسه

ثـوب مزركـش حتى يبدو جميـلًا ، لماذا عندما نذبح شـاة نقول بسـم اللّه واللّه أكبر و لا نقول بسـم اللّه الرحمن الرحيم؟ أظنك تعلم جيدًا الرد ، لكن سأخبرك به ربما تجهل..».

قاطعه أسامة بعصبية قائلًا :

«أنـا لـم أكمـل حديثـى و أظـن أن هـذا تجـاوز غيـر مقبول للتشـكيك بـي و..» ، قاطعـه الشـيخ مـرة آخـرى وهـو يقـول: «لأن القتـل لا يجـوز عليـه طلـب الرحمة ، و أنـت الآن تنادى بقتل رحيم، وقتل شفقة و غير ذلك، ورجوعًا لأحكام الإعدام وحيث أنهـا منصـوص عليها فى كتـاب اللّه بالحق فـى القصاص، وإن كان بالخطـئ تـم الإعـدام فهناك فـى الطب مـوت خطأ ، و فى الحيـاة موت خطأ ، و هذه مُقـدراااات من اللّه ليس لنا أن نتدخل بها و لو على إلغاء الإعدام سـتتحول تلك الدنيا لغابة و سـيتوحش الظالم أكثر، أنا لا أشكك بك بل أفضح جهلك و ضعف إيمانك أمام الناس، أنت حتى غير مدرك لدينك يا رجل، كيف..».

قاطعه مرة آخرى و هو يصرخ:

«أنـا غير مدرك لديني؟ من أنت حتى تُقر هذا؟ هذا الشـيء لا يعلمه إلا اللّه و يعلم لماذا أبحث عن هذا الحق».

قاطعه الشيخ مرة أخرى وهو يشير له بيده:

«عن أى حق تتحدث؟ الإنسان لا يملك حق إزهاق روحه يا هذا فكيف تصبغه بكلمة حق؟ ك..»

هـذه المـرة قاطعهمـا الإعلامى بعدمـا لاحظ خـروج الحوار عن المناظـرة والحـوار و تحـول لعراك لفظـى، لكنه فى تلـك اللحظة

وحينما حاول تمرير الكلمة لضيف آخر، ورده اتصال هاتفي، فطلب من ضيوفه إستقبال المكالمة، أجاب على المتصل بعد التحية فسأله عن اسمه لكنه لم يجِب فكرر سؤاله وهنا كان الرد:

«لقد ماتت نجوى..»

تغيرت ملامح وجه أسامة بمزيج غير مفهوم، لقد كان المتصل إبراهيم الذى طلب من الممرضة إجراء الاتصال و تساعده قبل رجوع زوجته، لكن امتزج شعور أسامة ببعض الصدمة مما قال، لقد شعر بخوف شديد على كاميليا، هنا قال الإعلامى:

«عفوا.. لم أفهم»، رد عليه إبراهيم قائلًا:

«ماتت نجوى.. لالا.. انتحرت نجوى بعدما ماتت، لالا.. إنتحرت بعدما قُتلت، هذا الوصف أفضل»، حاول الإعلامى معرفة من المتصل لكن قبل أن يسأل أشاره له أسامة أن يصمت، فأكمل حديثه قائلا:

«كانت شابة جميلة و هادئة، كثيرة الضحك و تبعث الأمل فيمن حولها، إنتهت حياتها بعدما إغتصبها حيوان، و لم يكتفى بذلك بل شوه وجهها تماما و فقدت بالتالى عينها، تم إغتصابها أمامى، تم التنكيل بها أمامى، تشوه وجهها أمامى، و لم أساعدها، أتدرون لماذا؟».

هنا صرخ إبراهيم قائلًا فى نبرة إقشعر بها جسد الحضور:

«لأنى عاجز لا أتحرك، سنوات طويلة على مقعد متحرك لا قدم و لا ذراع، رأيت ابنتى أمامى هكذا و لم أتحرك، رأيت زوجتى تُضرب أمامى بنفس اللحظة و لم أتحرك، والقانون حتى

الآن لم يتحرك، و لن يتحرك، و إن تحرك؛ هل سيعيد لي نجوى؟ هل سيمنحني قدما و ذراع لأدافع عن زوجتي بالمرة القادمة؟ أم نكتفى بجلوسنا فى المنزل خوفًا من الخارج؟ من سيداااافع عن زوجتى؟.

صحيح لم أتحدث عنها، إنها تلك السيدة التى عاشت معى إحدى عشرة عام تخدم ذلك العاجز، ذلك الرجل الذى يقضى حاجته فى ثيابه أثناء نومه و لم يعد يخجل من زوجته و هى تبدل له تلك الثياب المتسخة كل صباح، لم يعد يخجل لأن الجحل قد ثقب قلبه و أعمى عينه حتى كلمة الشكر لا تريدها»

هنا انهار إبراهيم وهو يصرخ قائلًا:

«هذه السيدة لو تركتني واختارها الله الآن، كيف سأعيييش؟ من سيكون معي؟ لن يتحرك منكم أحد، لن يتذكرني أحد، لن يكترث بحالى أحد لأن لكل منكم عالمه و حياته فلماذا لا تتركوني أذهب؟.

زوجتى و كانت نجوى و صديقين، تلك هى عائلتي و رحل عنها منذ فترة سمير، لم أُعرفكم به حتى الآن، ابن أخى الذى إخترت له طريقه و أصبح ضابط بالجيش يخدم وطنه مثلما خدمت أنا وطنى، إخترت له طريقه و لم أدرك أننى إخترت له موته»، تحشرجت الكلمات فى حلقه من شدة بكائه والجميع نكسوا رؤوسهم فأكمل وهو يصرخ:

«خدمنا الوطن واليوم الوطن لا يريد أن يخدددمنننني، لا يريد أن يمنحني سبيل لإيقاف معاناتي، أنتم تختلفوا حول المُسمى، موت

و انتحـار، رحمة وشـفقة ومذلة وإعدام، لا أبالـى بذلك، فالجائع بالصحـراء لا يكتـرث إن كان الخبـز طازج أم عفن، سـيأكله مـن فرط جوعه، هذا الرجل الذى لا يسـتحق هذا اللقب، العاجز عـن حمايـة أهله، العاجز عن قضـاء حاجته، قتل إبـن أخيه وقتل تلـك الفتـاة التى تناديه أبى، أنـا قتلتهمـاااااااااا، هل هذا كافٍ لتحكموا عليّ بالإعدام؟ ماذا الآن؟ لماذا لا أسمع معارض؟ لماذا سـاد الصمت؟ هـل حطت على رؤوسـكم الطيـر؟ أم أكل القط ألسنتكم؟ اللعنة على تلك الحياة، اللعنة عليكم جميعاااا».

أمر إبراهيـم اللمرضة بإنهاء الاتصال فى حين نظر الإعلامى لأسامة ثم لضيوفه و كأنهم حقا على رؤوسهم الطير، فقال:

«أعزائى المشاهدين، فاصل و نعود».

❖ ❖ ❖

عادت كاميليا بصحبة جورج بعد إنتهاء مراسم الدفن، و فور دخولهما المنزل سمعت صراخ إبراهيم و هو يقول:

«اللعنـة على تلـك الحياة، اللعنـة عليكم جميعـاااا»، نظرت لجـورج ثم أسـرعت صوب الغرفـة يلحقها جورج، و مـا إن دخلت الغرفة وجدته على فراشـه منكس الـرأس يبكى بصوت عالٍ، والممرضة تضـع الهاتف على الطاولة المقابلة له بجانب التلفاز، فما إن رأت التلفاز عرفت أن إبراهيم كان يتابع الحلقة، فهرعت إليه تضمه بين ذراعيها و هى تقول:

«مـاذا بـك؟ لمـاذا حالاتك هكـذا؟»، لـم يجيبهـا و أكتفى بالبـكاء، فنظـرت للممرضـة وسـألتها عما حـدث هنا، قصت

عليها ما حدث و مكالمة العقيد الهاتفية ، فنظرت له و هى تقول:

«لمـاااذا فعلـت ذلـك؟ لن تنتهى مـن هذا إلا عنـد وصولك لما تريد ، حسـنا يـا إبراهيم.. ماذا تريد الآن؟ هـل تريد مني مداخلة لأقول لهم ساعدوه على الموت؟».

كف عن البكاء فجأة و نظر لها و هو يقول:

«أنت الوحيدة التى إن انشقت الأرض و أنقلبت السماء لن تنفذ لـي هـذا الطلب» ، أجلسـته علـى الفراش و نهضـت ثم تحركت بضع خطوات و فجأة توقفت ونظرت للخلف صوبه ثم قالت:

يكفيني اليوم جنازة نجوى ، وسـنتحدث عن ما تريد لاحقًا" ، و قبل أن تغادر عاد البث المباشـر و رحب الإعلامى بضيوفه مرة آخـرى ، جلـس جورج على المقعد وعادت هـى تجلس بالقرب من التلفاز ، بدأ الشـيخ يتحدث عن المكالمة التى سبقت الفاصل ، فأوضح أن المتصل يحاول التأثير على الرأى العام بما يقول ، ولا يـدرى أن الأمـر هنا يخص الديـن والتشـريع والقوانين أكثر من العواطف والإنسانيات ، سمع جورج ما قاله فنظر لإبراهيم و قال:

«مـن الأفضـل أن تغلق التلفـاز يا إبراهيم ، حالتك النفسـية لا تتحمـل ذلك» ، لم يعير مـا قاله اهتمام وأكمل النظر للشاشـة ، وكذلـك فعلـت كاميليا ، حين اسـتكمل الضيـوف محاصرة أسـامة والـذى إمتلـك دفـع قويـة بكلمـات إبراهيم ومـن خلال المناظـرة والتـى تحولـت لجدل و هرج واسـع ، دليـل أن كلماته المُجعة كان لها تأثير كبير على نفوسهم ، و بعد مرور ما يقارب الساعة دون أن يتحدث أحد ، أنهى الإعلامى الحلقة فنهض جورج

من مقعده ليغلق التلفاز، ثم عاد لينظر له و قال:

«هل ما حدث الآن جيد بالنسبة لك؟ هل حالتك النفسية بخير الآن بعد كل ما سمعت؟ لماذا تحرق نفسك بهذه القسوة»، صرخ و هو يقول له:

«لأننى بالفعل أحترق و كل ما يحدث من حولي يزيد إحتراقي، كل من حولي ينتهى و أنا أنظر لهم، لقد قتلت شخصين، و لن أغفر لنفسي هذا، لم أودع نجوى حتى، لماذاااا؟ كيف يودع القاتل ضحيته و ينوح خلفها؟ أنا لا أستحق محبتها و لا أستحق أبوتها و لاا...»

قاطعته كاميليا و هى تنظر له فى تحد صارخ قائلة:

«هذا ما تظن؟ أنت الآن قاتل لسمير و نجوى ؟ ألم أساعدك بذلك أيضا؟ أم أنا ضحية مثلهما؟»، حاول أن يقاطعها لكنها صرخت قائلة:

«لالالا.. لا تنطق بشىء فما ستقوله غير صحيح، دعني أنا أكمل كلمتي وأذهب، أنت لست الشيطان الوحيد، أها صحيح تذكرت أن أسامة و جورج والمغفور لها نجوى وافقوا على دعمك فى طلبك، هل جميعكم شياطين وأنا الملاك؟ أنا مثلكم تمامًا وهنا قررت الآتى».

فهم إبراهيم ما تنوى أن تقول و حاول أن يسد أذنه لأنه لن يصدق ذلك لكنه لم يستطع حين أكملت بنفس اللهجة قائلة وهى تقترب منه:

«أناا معك فى قرارك، سأدعمك فى رحلتك نحو موت رحيم»

وانفجرت الكلمة فى وجه الجميع..

الفصل الخامس عشر

طعم الخسارة مر لا يطاق، هل جربت مرة حليب الصبار؟

ذلك الطعم لا يفارق قلبك خاصة إن كانت تلك المعركة هى الأهم بحياتك، من الصعب فى البداية أن تتقبل الهزيمة، وتظل تفكر كيف تخرج من فم الخياط بالمخيط ربما لتطريز ذلك القطع بروحك، أو لتنسج ثوب جديد لتخوض به جولة آخرى بالمعركة، و تبقى الحياة داخل ما بين كر و فر، ما بين حليب الإبل و حليب الصبار.

كان أسامة يجلس خلف مكتبه و كالعادة يمسك بأحد سجائره، لكنه اليوم يأكلها فى نهم شديد كالجائع، لقد كان ينتظر قرار المحكمة و هذا يشعره بالقلق الشديد، فاليوم نتيجة الجولة الثانية بمعركة حياته، لقد مرت عدة أيام على الحوار التلفزيونى و منذ ذلك الحين والشارع كالجمر ما بين مؤيد لأسامة و معارض للقضية، ما بين متعاطف مع إبراهيم وبين منتهك لشخصيته، و شبكات التواصل الإجتماعي إلتهبت بنيران المؤيدين والمعارضين ليظهر على الساحة الكثير من القضايا المشابهة والأكثر تأزما عن حالة إبراهيم، مما أثار قلق أسامة بشأن القرار.

نهض أسامة متجها صوب نافذة مكتبه، وقف يتابع السيارات المسرعة بالشارع فى حسد، و لسان حاله يقول تقطع الطرقات

بسـرعة و أنـا أجلس هنا فى جحيم الإنتظـار، تناقل نظره ما بين النافذة و ساعة يده والعامل المشرك دخان سجائره.

أخيـرا.. قُطِـع الإنتظار بدقـات الباب، فأعطـى الطارق الإذن بالدخـول دون أن ينظـر له، لقد كان أحمد، الذى وقف مكانه بعد أن أغلق الباب وقال:

«سيدى.. لقد رفضت المحكمة الدعوى».

هـذه الكلمـات كانـت كفيلـه بتهشـيم أحلامـه و إعـلان خسـارته للمـرة الثانيـة، لكنـه تمالك نفسـه والتفت فـى هدوء وتوجـه نحـوه ليلتقـط الأوراق التى بيـده، ثم ذهب فـى بطء إلى مقعده و هو يتصفح الأوراق، ثم جلس و هو يقول:

«طبقا للمادة الثانية للدسـتور والتى تنص أن القانون المصرى قائم على الشريعة الإسلامية، و أن كل البنود التى تخص الدين والشـريعة تكون خاضعة لقرار مجمع الفقهـاء، وبعد النظر فى ملف القضية والإطلاع، و تحويله لمجمع الفقهاء ولجنة التشـريع بالبرلمان للفصل، و قد كان قرار اللجنة بعدم قبول تعديل مواد الدستور والسماح بتوقيع موت الرحمة على المرضى، و عليه.. تم رفض الدعوى كليًا على أن يتم نشـر القرار بالجريدة الرسـمية خلال خمسة عشر يوما من تاريخه..»

تابعـه أحمـد فى صمـت ثم اقترب بعدمـا أنهى قـراءة ما بيده وجلس أمامه قائلا:

«هل كان للحوار التليفزيونى هذا التأثير السلبى؟»

نظر إليه أسامة وهو يقول:

«كان هدفي من هذا الضغط على صُناع القرار لا على الشعب، لم أحسب لتلك الضجة و ظهور حالات كثيرة جدًا تطالب بذلك و حالة الإنفلات المصاحبة، كما قلت لك من قبل، التواصل الإجتماعى فى دول آخرى يفيد، فى بلادنا سلاح ذو حدين و ها هو يضع معركتي الأخيرة على خط النار حتى انتهت بالخسارة».

ثم التقطت كوب الماء من أمامه و أخذ ينظر له و فجأة صرخ و هو يلقى الكوب تجاه الحائط المقابل له فأرتطم به فى قوة ليتحطم كليًا وسط ذهول مساعده و قال:

«لم تنتهى تلك المعركة ياااا إبرااااهيم، لم تنتهى و سأكمل طريقي.. مهما كلفني ذلك»، ثم نهض مسرعًا ليركض خارج المكتب.

وصل إلى سيارته و ما إن ركب حتى إلتقطت هاتفه قبل أن ينطلق متصلًا بكاميليا، فأخبرها أنه يريد رؤية إبراهيم فقالت له إنه فى الانتظار، أغلق الهاتف ليدير محرك السيارة.. وينطلق.

دقائق و كان بالفعل أمام إبراهيم، الذى قال له:

«وجهك أخبرني بما تريد أن تقول، لقد تم رفض الدعوى.. أليس كذلك؟».

جلس على المقعد المجاور له ثم قال:

«ستكون هناك محاولة قادمة قر...»، قاطعه إبراهيم فى هدوء قائلًا:

«لا داعى لذلك.. الطريق أصبح مسدودًا، لقد نسيت أنى

بمجتمع شرقى، شريعة إسلامية، قوانين باهتة عقيمة، لا وجود لحرية الأفراد، لا تتعب حالك فى الجدال معهم فالقانون المصرى لـن يتبـدل لعاجز مثلي، و لن يمنح عقيد خدم وطنه ما يطلب، لن تتبدل الصورة و يكفينا المحاولة».

نهض أسامة من مقعده و هو ينظر له فى ذهول قائلًا:

«و لمـاذا طلبت ذلك من البدايـة؟ ألم تكن تفكر بذلك؟ هل رأيـت تلك الحقائق بعد مـا أظهرت عجزك للجمهور؟ هل عاد لك عقلك الآن؟».

هنـا قاطعته كاميليـا التى دخلت عليهما بعدمـا ارتفع صوته فقالت:

«لا داعى لترفع صوتك فأنا أعرف جيدًا معنى الخسارة لديك»، إلتفـت إليهـا و هى تنطق تلك الجملة حيث لم تنظر له حتى، فقد كانـت تحمـل كوب من المـاء لزوجها و تسـير بخطـوات ثابته نحوه، فزاد ما قالت من غضبه فقال:

«لن أخسر يا كاميليا ل..»، قاطعه إبراهيم بصوت عالٍ يقول:

«كفى.. لقد إنتهى الأمر و خسـرت تلك المعركة، إن كنت تبحـث عن نصـر آخر فحاول البحـث عنه بطريقـة أكثر نفعًا، لكن وجب عليّ الشكر لما قدمت لي.. طيلة المعركة».

نظـر أسـامة صـوب كاميليا بعين تـكاد تغـادر مكانها ثم إليه، و قال:

«لا شـكر علـى واجب، لقـد كنت أقوم بعملي، اسـمحا لي سـأنصرف"، أومـأ لـه برأسـه بالسـماح له، ثـم تبعتـه كاميليا

لتودعه، و حينما وصل إلى الباب قال لها:

«كل يوم أموت عن سابقه بكلمة منك، و لا أدرى متى ستنتهى تلك المعاناة»، ثم التفت ليذهب قبل أن تقاطعه قائلة:

«ستنتهى حينما أموت».

صُعِق مما قالت و نظر لها مرة آخرى دون أن يتكلم ثم ركض مسرعًا صوب سيارته، فأغلقت الباب و عادت لزوجها الذى قال:

«لم يستطع تحقيق الفوز الذى أراد، لم يسألنى أحد لماذا اخترت أسامة ليكون المحامى الخاص بي و لماذا أوكلته تلك القضية تحديدًا؟»، جلست إلى جواره و نظرت له حيث أكمل:

«لأنى أعلم جيدًا أنه يتمنى موتي حتى يفوز بكِ ليستعيد ما يتخيل أنه حقه، ياله من مسكين»، ثم ضحك و هو ينظر لأعلى، و فجأة توقف عن الضحك و سألها:

«هل من الممكن أن تتزوجي أسامة بعد موتي؟».

صعقها ذلك السؤال لكنها جاوبت فى تحد سافر قائلة:

«أصبحت تشكك فى كل شىء، لكن كن مطمئن، لن يكون بحياتى رجل غيرك، إن ذهبت وحدك»، كانت كلمتها الأخيرة لاذعة مثيرة للقلق، فسألها:

«ماذا تعنى هذه الجملة الأخيرة؟!»، ابتسمت و هى تقول:

«لا تخف أنا لا أنوى الانتحار بعدك، لكن لن أستطيع تَحَمّل العيش دونك»، ثم التفتت لتخرج من الغرفة حتى لا يسألها مرة آخرى، لكنها كانت على وشك الانهيار والدموع تكاد تغلى على جفنيها، لكنه قال:

«كاميليا.. أريد أن أتحدث مع جورج الليلة، تحدثى معه ليحضر»، أومأت برأسها دون كلمة و حتى دون أن تنظر حتى لا يفتضح أمرها.. فقد انفجر بئر الدمع من عينها.

❖ ❖ ❖

أعلنت الساعة الثامنة مساءًا و فى نفس اللحظة مع دقات الساعة كان الباب يدق ليعلن عن وصول جورج، توجهت كاميليا لتستقبله، رحبت به و دعته للدخول، لكنه توقف قبل أن يدخل بعدما نظر إليها، كانت تلتفت لتدخل لكنه أمسك ذراعها لتقف فنظرت له و هو يقول:

«وجهك شاحب جدا و مُتعب، هل تتناولِ الأدوية بإنتظام؟» بابتسامة منهكة تحمل من الحزن أكثر من الرضا، ظاهريًا إبتسامة و لكنها كانت حزن يرتدى قناع زائف ليتخفى بين الأطلال، فأكمل و هو لازال ممسكًا يدها:

«و ماذا عنه؟ أدرك جيدًا حجم المعاناة داخلك، و لكنه لازال حي عليكِ التفكير بذلك قبل أن تفعلى شىء»، قالت له فى نبرة منكسرة و هى تنظر لغرفته:

«لا تقلق فأنا لن أتركه و أذهب».

ترك يدها فتقدمت المسيرة و هو من خلفها صوب غرفته، ثم دخلت الغرفة لتخبره بقدوم جورج، و بعدها توجهت للمطبخ لتحضير القهوة.

جلس جورج إلى جواره على الفراش، ثم وضع يده على كتف إبراهيم و قال:

«مـا الذى تحمله تلك النظرة يا صديق الطفولة؟»، ابتسـم فى تهكم وفى ينظر نحو باب الغرفة قائلًا:

«تلـك النظـرة تحمل سـؤال لك، هل سـتجيب عليـه؟»، عقد جورج حاجبيه فى تعجب من سؤال إبراهيم قبل أن يرد عليه:

«لماذا أخفى عليك؟ اسأل».

عاد بنظره صوب جورج وهو يقول:

«ماذا تُخفى عني أنت وكاميليا؟».

ارتبك جورج من سـؤاله لكنه سيطر على حاله قبل أن يفضح إبراهيم أمره وقال له:

«ماذا سـنخفى يا إبراهيم؟ كيف لا تشـعر بها يا هذا؟»، نظر لـه فى إهتمام حيث توقع أن يُخبره بما تخفيه زوجته عنه، لكنه استطرد قائلًا:

«سـؤالك يثبت جهلك و موت مشاعرك، لأنك لا تُبصر كيف تحبك تلك المسـكينة التى تنام تحت قدميك دون كلل، و كل مـا تتمنـاه أن تراك بخير حتى مع إنعـدام الأمل، لكنها إكتفت بـك، إكتفت بتلك النظـرة، و أنت تريد عبورهـا والذهاب! إلى جانب ما حدث لنا تلك الفترة، أليس هذا بكافٍ».

غضـب إبراهيـم من تبريـر جورج الذى لا يسـمن و لا يغنى من جـوع، والثانـى كان يتمنى أن تقنعه تلك الإجابـة و لا يُصر عليه ليفتضح أمره، لكن باغته إبراهيم بلهجة حادة منخفضة حتى لا تسمع و نظرة تكاد تثقبه:

«كاميليـا توافق على دعمي بقـرار الموت، أليس ذلك غريب

بعض الشيء؟»، حاول جورج أن يَتَصنع التعجب، فقال و هو يرفع حاجبيه و يميل من على الفراش كأنه مصدوم:

«لاااا.. ما قالته ذلك اليوم لحظة غضب، لن تفعل؟"، كانت ردة فعل جورج تبدو طبيعية، حتى أن إبراهيم إعتقد أن جورج لا يخفى شيء»، فرد عليه:

«أنت لا تعرفها؟ لقد عاشت معي ما يكفى لتصبح مثلي حينما تقول شيء لا تغيره، لقد حاولت أن ألتمس لها عذرا موت نجوى وعودتها من الجنازة ذلك اليوم، وما سمعته على التلفاز أيضا، لكنه لم تعيد الأمر و لم تحاول تصحيحه، لهذا سألتك وسأسأل للمرة الأخيرة.. هل هناك ما يجب أن أعرفه؟».

نظر إليه جورج وهو يقول:

«لا يوجد شيء أخفيه، و سأسألها لكن أنا على دراية تامة أن جوابها لا.. إن وافقت على ذلك و أنت تقر أنها تعلمت على يدك، منذ متى و أنت تترك لقراراتك حق بالمناقشة؟ ألا تتذكر يوم جنازة سمير؟ من منا كان يعلم بقرارك؟ حتى زوجتك لم تكن على دراية، لأنك ديكتاتور يا سيدى العقيد، لا تحب المركزية بالقرار و دائما ترى الأمور من زاويتك، و بعد كل ما حدث وما عايشنا، هل تظن أنها حجر؟ أليست بشر؟ من الطبيعى أن تنهار مثلما حدث لنا جميعًا، لا تتهمها عبثا فهى تعلم أنك لا تعود، قرارك كالرصاصة إن خرجت من فوهة فمك لا تعود دون إصابة.. يكفى».

حاول إبراهيم ابتلاع تلك الكلمات على الرغم من كم

الشكوك التى تأكل عقله، فحالتها فعلًا غير مطمئنة منذ تلك الحادثة، و من بعدها انتحار نجوى و كل شىء يتغير، فهى حتى الآن تتفادى الصدام به، و إن حدث بينهما حديث تتحدث بهدوء مقلق، و تجاوبها مع طلبه للموت أيضا مُقلق، لكنه حاول الإستناد لما قاله، إلى أن تظهر الحقيقة إن كان هناك شىء.

عادت كاميليا و هى تحمل القهوة، ثم وضعتها أمام جورج، و أمسكت بكوب من العصير لإبراهيم و جلست على الطرف الآخر من الفراش، ثم هنا قال لجورج:

«لقد حضر أسامة لزيارتي اليوم، و لا أشك فى ذكائك لتفهم التالى».

إن كنت تنوى الموت بأى حال، و قضى الأمر فى قرارك، سأدعم من وكلته بذلك بالدعاء و لا توكل لي هذا الفعل، ربما عندما ترى منكرًا و لا تستطيع تغييره بيدك و لا لسانك و لا حتى بقلبك أخف ذنبًا من قتل نفس، فكان جورج على علم بذلك حينما دعم أسامة بعد قرار إبراهيم و إصراره عليه، والأن؟!!.

كان جورج يعلم أن حينما ينتهى دور أسامة سيأتى دوره، سيطلب منه ذلك حتى مع علمه أنه لن يفعل، لكن سيطلبها من جورج لا محالة.

رد عليه جورج و هو ينظر للأرض:

«تم رفض الدعوى كما توقعنا»، ثم أعاد بالنظر صوب إبراهيم ليقول له بلهجة صارمة:

«لن أفعل يا إبراهيم.. لن يكون موتك على يدي»، نظر له فى تحد و هو يقول:

«لمااذا؟ هل كانت سوسن أقرب لك مني؟ أم لأنها توسلت لك مئات المرات حتى فعلت؟"، لفتت تلك الجملة إنتباه كاميليا، فقد ألمح زوجها أن زوجة أخيه لم تمُت بشكل طبيعى، و أن جورج قتلها بناء على طلبها بالقتل الرحيم»، هنا نهض جورج فى غضب و صاح بإبراهيم قائلًا:

«ماااذا!!! تقول أنت؟ ألم تكتفى من هذيانك هذا؟ لقد إبتلعت ذلك الإتهام بماء الأخوة التى بيننا حينما قلتها بالمشفى، و لكن لن أتركها تمر من بلعومي هذه المرة، أنا لم أقتل سووووسن، لم أفعل، لا تجعلني أندم على تلك السنوات التى قضيتها كأخ لك».

لم ينظر له ثم رد عليه:

«دائما ما تؤلمنا الحقائق، تثير غضبنا، حينما نواجه تلك الآثام التى اقترفتها أيدينا نصيح و نصرخ كذبًا، تمامًا كما تفعل أنت، لكن لا داعى لذلك فأنا سمعت ما دار بينكما تلك الليلة و هى تتوسل لك وفى النهاية قلت لها حسنًا»، هنا نظر له ثم صرخ فى غضب:

«ألم تقل لها ذلك؟؟؟ لا داعى للكذب»، اقترب جورج منه و هو يرد عليه بغضب قائلًا:

«زوجة أخيك ماتت بالسرطان و دون تدخل مني، صدق أو لا تصدق لن يحدث فارق عندي، و بالفعل أنا قلت لها حسنًا، لأنها كانت تحتضر والمتبقى لها ساعات و ليس أيام طبقا لآخر تقرير، إنتبه لما تقول»، علت نبرة صوت إبراهيم و هو يقول له فى غضب:

«لن أصدق ما قلت، مهما حاولت لن أصدق، لقد سمعت كل شيء.. كل شيء، و لن أتوسل لك و لن أسافر للخارج لتتحقق أمنيتى فأنا أريد الموت على هذا الفراش و أنت من سيفعلها».

رد عليه فى غضب زائد قائلًا:

«هل تسمع أذنك ما يقول لسانك يا هذا؟ أظن أنك لم تعد تسمع جيدًا، فما تقوله هذا إتهام مباشر لي بالقتل، و سأقولها لك مرة آخرى ربما لم تسمع»، هنا صرخ إقترب جورج من وجهه و صرخ قائلًا:

«لن أاافعل، لن أاااافعل»، رد عليه إبراهيم و بنفس الصوت:

«ستفعل حتى لا أبلغ الشرطة بفتح تحقيق حول ذلك، ستفعل أو أزج بك للسجن»، كانت صدمته قوية مما سمع، هنا نطقت كاميليا قائلة:

«ماذا دهاك يا إبراهيم؟ كيف تقول ذلك؟ هل جننت؟ تقرير الطب الشرعى أوضح أنها ميتة طبيعية، ماذا دهااك».

صرخ بها و هو يقول:

«سيفعلها و إلا سيسجن» نظر جورج لها و قال:

«كاميليا صدقيني لم أفعل»، أجابته فى حزم قائلة:

«دون أدنى شك أنا أصدقك»، نظر لها إبراهيم و هو يصرخ:

«لا تزيدى من غضبي، لقد فعلها و سيفعلها مرة ثانية، سيفعلهاااااا»، واصل جورج صراخه و هو يردد لن أفعلها فى حين إبراهيم يصرخ ستفعلها، و هنا صرخت كاميليا قائلة:

«كفى... كفى لا أتحمل ذلك كفى».

نظر إليها الاثنين فقد كانت حازمة جدًا و هى تصرخ فى غضب، حتى أكملت حديثها بما كان وقعه قويا كالقنبلة، فما سمعاه بعد ذلك كان من المستحيل تصديقه حينما قالت:

«أن من سيفعلها..».

ساد الصمت بعد تلك الجملة لدقائق، جحظت خلالها عينا الرجلان، لم يكن أحد يتخيل و لو للحظة واحدة أن كاميليا التى تحارب منذ البداية لتوقف زوجها عن قراره أنها ستدعمه، بل والأصعب من ذلك أنها هى من تنوى قتله!

تحرك نحو المقعد المتحرك و ما إن وصلت له حتى أمسكته وقالت:

«إبراهيم.. زوجى الذى تعلمت منه كيف تكون الحياة، و ما معنى الأمل، و أحببت معه الدنيا و تمنيت معه الموت، طيلة تلك السنوات و أنا بجانبك لأن هذا واجبي تجاهك، أحببتك أكثر من حبي للحياة و لا أحتمل الحزن فى عينيك، و تلك البائسة التى تقف أمامك تعلم جيدًا حجم معاناتك، إحدى عشرة عامًا قضيناها هنا فى تلك الغرفة المحاطة بالحزن، و على الرغم من ذلك الحزن المتدفق على رؤوسنا؛ إلا أننى كنت أحبك أكثر، و لم أحتمل دموعك لحظة»، ثم نظرت نحوه و هو لا زال جاحظ العينين وقالت:

«لكنك لم تحبني كما أحببتك، كنت تحب نفسك أكثر من أى شىء، لا أنكر حبك لي.. لا لا.. أنا أعلم جيدًا كيف تحبني، و لكنك حتى مع ذلك الحب والذى يربط روحين ليصبحا روح واحدة، على الرغم من تلك المعاناة التى جمعتنا

والتى كان من الطبيعى أن يزداد حبك لي، كان حبك ثابت، لأن طبيعتك العسكرية طبعت على الزوج المُحب، أنت أنانى يا إبراهيم، بكل قرارتك لم تشركني، كنت فقط أعلم ما تنوى، كم من مرة طلبت منى الرأى؟ حتى لو فعلت، كان لمجرد إرضائي، و حينما قررت الموت و لم تفكر لحظة أن تخبرني قبل الجمع، لم تنظر لي حتى، لأنك أنانى، تخشى أن أموت، و أنا ألتمس لك العذر فى ذلك و لهذا قررت أن أحمل ذلك الواجب الذى لم تستطع حتى البوح به، من الأقرب لك؟ من لديه الحق أكثر؟ هذا الواجب من حق من؟ لقد تحملت معك كل تلك المعاناة و لم أعارضك لحظة و لم أيأس لحظة، أظن أنه واجبي أن أمنحك ما تريد طالما قرارك لا رجعة فيه، لأنك بكل الأحوال ستموت إذن هذا واجبي، واجب تلك المرأة التى أحبتك أكثر من نفسها، ولأنها تحبك ستساعدك على إنهاء تلك المعاناة، لأنها تحبك ستلبي أخر أمانيك، لأنها تحبك ستكمل هذا الحب حتى تجتمع بك بالعالم الآخر، لأن هذا واجب الزوجة لا واجب الصديق».

حاول جورج استيعاب ما قالت، ذلك المنطق غريب بعض الشىء، لكنه لا يدرك أن علاقات الحب والتضحية لا تتمنطق، لا يدرك أن هناك من يستطيع قتل لنفسه ليهب من يحب الحياة، لا يدرك أن هناك من يقطع من جسده ليتبرع به لمن يحب، وبما أن رغبة إبراهيم نهائية، و هواجسه بموتها لن تنتهى، وخسائرهم المتتالية والمتلاحقة تزيد من خوفه، فما قررته كاميليا هو الحل الوحيد إن كان يريد الراحة.

لكنه حاول أن يناقشها فى قرارها وهو يقول بكلمات متقطعة:

«كاميليا.. ما.. ماذا ت.. ماذا تقولِ، ك.. كيف ذلك؟».

دون أن تنظر له أجابته فى حزم:

«لقد تعلمت من زوجي شيء هام، ما أنطق من قرار لا رجعة فيه، أنا سأمنح زوجي الراحة لأن هذا واجب الزوجة.. وواجب الحبيبة».

لم يعد إبراهيم يتحمل كل ما يسمع و ما يعيش، فإنفجر باكيًا و هو يصرخ و يقول:

«سامحيني يا كاميليا.. باللّه عليك سامحيني لقد ظلمتك وضاعت سنوات عمرك هنا، و لم أعطكِ من الحب ما تتمنى، أتوسل إليك سامحيني».

تحركت بسرعة صوبه و جلست على الفراش ثم احتضنته على صدرها و هو لازال ينوح بصوت عالٍ و يتوسل إليها دون توقف أن تسامحه، ثم قالت له و هى تربط على ظهره:

«لا تقول هذا و لا تتوسل لي، لأنى أحبك لم أحزن منك يومًا، و لم أغضب يومًا، لأنى أحبك سأساعدك لأننى أكثر من يعرف كم عانيت بحياتك، و لأنى أحبك، لن أدعك تنتظرني بالعالم الآخر كثيرًا، أنا أعلم جيدًا أنك لن تستطيع بدوني، و لا تخاف لن أنتحر.. لكن حزني على فراقك سيكون سبب موتي، لكن لا تحزن فهذا قدرنا».

نهض جورج من مكانه و هو يبكى هو الآخر، لم يعد يتحمل كل تلك المعاناة، فصرخ قائلًا:

«كفى.. ليوقظني أحد من ذلك الكابوس، أرجووووكم ليوقظني أحدد».

نظرت له كاميليا و هى تقول:

«سوف تستيقظ منه حينما ينتهى، ستحزن قليلًا، لكن ستفرح لنهايته، لقد كنت دائما صديق مخلص يا جورج».

جثا على ركبتيه و هو يبكى وصوت بكاءه طغى على صوت توسلات إبراهيم، أما كاميليا فقد نظرت للسماء ولسان حالها يقول:

«إغفر لي يا الله، فأنت تعلم».

وسالت عينها بالدموع.

❖ ❖ ❖

الفصل السادس عشر

التضحيات لراحة من تحب من أكبر دلالات الحب الحقيقى، فلا عجب أن يجهل صغار المحبين ذلك، ولا عجب أيضا أن ينكر ذلك المتصنعين.

إن كنت تحب حقًا سترى من تحب أمامك، ستعمل دائمًا على إعطاءه روحك إن لزم الأمر، فالمحب الحقيقى لا يستطيع العيش و قلب من يحب يحمل ألم، فما بالك إن كان يحمل معاناة تكبر مع شروق شمس كل يوم جديد.

ربما سيجد الكثير قرار كاميليا غير منطقى، وسيتعجب البعض من هذا و سيقف على ما يتابع أنها شىء من الخيال غير خاضع لمنطق يستوعبه عقل بشر، تحياتي لكل من داعبه ذلك الشعور فأنت لم تسكنوا مدن العشق يومًا.

تبدل الحال فى المنزل، فبعد حالة الفتور التى كانت ما بين الزوجين، عاد التلاحم بينهما.. و ربما أكثر، لم يضيع أحدهما دقيقة و هما على علم تام أن الوداع قريب و لن يستطيعا تدارك الوقت الضائع، كانت كاميليا تقضى الصباح معه بالغرفة، يتبادلا الذكريات و عين كل واحد منهما تكسوها الدموع، و بعدها يذهب معها إلى المطبخ يعدا سويا الطعام، ينظر لها فى حنان كطفل صغير ينتظر أمه لتطعمه، إلى أن يأتى الليل و ينام على كتفها حتى الصباح.

حتى جاء اليوم..

استيقظت كاميليا و دموعها لا تجف، و رأسها يؤلمها و كأن قنبلة تتفجر داخله كل دقيقة، كانت تنتظر جورج ليحضر لأنه قرر قضاء اليوم الأخير معهما، لكنها لم تقرر بعد هل تدعو أسامة أم لا؟.

كانت تعلم أنه سيفرح من داخله فرحًا شديدًا لموت غريمه، فكان ذلك سبب للتفكير فى عدم دعوته، و لكن لا تستطيع نسيان أنه أخاها التى تربت معه و عاشت نصف حياتها بجانبه كتفًا بكتف.

و بعد صراع مع التفكير قررت عدم دعوته حتى يرتاح إبراهيم و حتى لا ينطق أسامة بشئ يحزنه فى لحظاته الأخيرة، و بينما هى فى طريقها لغرفته، دق جرس الباب معلنًا عن وصول جورج، فأستقبلته فى حزن و عيناها تترقرق بالدموع و كذلك عينه، فلم تستطع منع نفسها من إحتضان جورج و هى تبكى وتقول:

«لا أدرى كيف سأفعلها و هو ينظر لي يا جورج، لا أدررى»، ربط على ظهرها و هو يقول:

«لازال لديك الوقت لتقولى لا، فأنا مدرك تمامًا أنه صعب جدًا».

كانت بالأيام الماضية تفكر بذلك أيضا، لكنها لم تستطع البوح بذلك خاصة بعدما شعرت أنه يتحرر و ينتظر ذلك دون خوف، بالعكس تمامًا كان هادئ مطمئن، أو يحاول منحها ذلك الشعور حتى لا يلين قلبها.. لقد قضى الأمر.

حاولت مسح دموعها و هى تدعوه للدخول و أغلقت الباب ثم إستاذنت منه قليلًا ، دخل جورج متوجهًا صوب غرفته فوجده مستيقظ و على وجهه إبتسامة طفل صغير ، كان وجهه مشرقًا على غير العادة ، و كأنه طفل صغير صباح يوم العيد ، فدخل ليجلس إلى جواره على الفراش ، ثم إحتضنه بقوة و أخذ يبكى فى قوة و هو يقول:

«كيف ستكون الحياة من بعدك يا صديقي؟ كيف سأعيش يا إبراهيم بدونك؟» ، ضحك إبراهيم و أجابه فى تهكم:

«لن تكبر أبدا أيها الأبله ، و من قال أنى سأتركك ، لا تخف ستظل روحي جوارك ، كف عن هذا العبث فأنا لدي طلب أخير و لتكن تلك وصيتي لأخي و صديقي» ، اعتدل جورج فى جلسته و هو يمسح دموعه و قال له:

«لن أتركها وحدها يا إبراهيم ، أعدك بذلك».

ابتسم و قال له:

«دائما ما كنت تفهمني لكنك متسرع بعض الشئ ، على كل حال هذا واجبك أن تبقى معها و لا تتركها ، لكن هناك طلب آخر ، أرجووك لا تدعها تتألم وأحرص على ذلك ، أنا لم أكن رحيمًا بها فكن أنت ، لا تجعلها تتعذب أرجوووووك» ، فأومأ برأسه له ثم وعده بذلك.

دخلت كاميليا وهى تقول فى حنان:

«لقد استيقظ الصغير أخيرًا» ، فنظر لها و قال:

«نعم.. لكن سأطلب منكما طلب صغير ، دعونا نتناول الإفطار

على المائدة سويا ، ليكن اليوم الأخير يجمعنا بكل لحظة» ، كان وقع كلمة اليوم الأخير يؤلمها جدا و لكنها حاولت جاهدة الصمود كى لا يتألم لألمها ، فنظر له جورج و قال:

«و من قال لك أنك ستأكل هنا أصلًا؟ سوف نتناول الإفطار سويا و بعدها نخرج لنجلس بالحديقة قليلًا ، ما رأيكما؟» ، ضحك و قال له:

«نعم كما كنا نفعل بالسابق، موافق».

استاذنه جورج ليذهب كى يساعدها بالمطبخ فأذن له ، و ما إن وصل حتى سألها:

«هل أخبرتِ أسامة؟» ، نظرت له و هى تقول:

«لا.. من الأفضل أن يبقى بعيدًا» ، تعجب من قولها هذا عن أخر من تبقى لها بالعائلة و أخاها و صديق العمر ، ثم سألها:

«هل لي بمعرفة السبب؟» ، تنهدت فى حرقة و هى تقول:

«منذ الصباح و أنا أحارب نفسي للوصول لقرار بخصوصه ، أنت تجهل تفصيلة صغيرة ، أسامة لا يعتبرني أخته و صديقته ، أسامة يحبني و حتى الآن و لهذا ساعد إبراهيم بعدما أظهر فى البداية رفضه ظاهريا ، لكنه كان يقاتل ليتخلص منه ظنًا منه بالفوز بي».

شهق جورج مما سمع ، لم يكن يتوقع ذلك ، ثم سألها:

«هل يعلم إبراهيم ذلك؟» ، أومأت برأسها إيجابًا وقالت:

«منذ أول يوم لنا بزواجنا وهو يعلم كل شىء ، و لم يطلب مني مرة أن أقطع صلتي به لأنه يعلم من هو أسامة بالنسبة لي ،

حتى كانت أخر زيارة له حينما أخبر إبراهيم، و من حديث أسامة كان رد إبراهيم واضحًا تماما له، لقد عرف أسامة أنه يدرك كل شيء، و لهذا السبب إختاره منذ البداية ظنًا منه أنه سينجح، حتى أنه جن عقله و ترك المنزل فى غضب».

اعتدل فى وقفته و تراجع خطوة للخلف وارتسمت على وجهه علامات كأنه وجد شيء و قال:

«نعم نعم.. الآن فقط فهمت لماذا كان يحارب و يحاول الوصول لفوز بهذه القضية، وما سبب عدائه لي بالتالى، لقد فهمت الآن»، تعجبت كاميليا مما قال وهى تسأله:

«ما الذى تتحدث عنه؟»، خفض صوته وهو يقول:

«كنت أظن أنه يتلاعب بعقل إبراهيم لأنه لا يحبه منذ البداية، و لكن لم أجد سبب واضح لهذا الكره، يوم جراحتك بالمشفى كان مثل المجنون، و حاول ضربي لأني أخفيت عليه ليلة الحادثة، و كذلك أخفيت عليه ما تلى ذلك لأني على يقين أنه سيخبر زوجك، و لهذا طلبت منك إخفاء هذا عن الجميع».

عادت لتكمل تحضير الإفطار و هى تقول:

«كان قراري صائبًا إذن، لا داعى لوجوده فى لحظاته الأخيرة»، ثم انشغلت بما تعمل و ساعدها فى تجهيز الطاولة، وما إن انتهت حتى ذهب ليُحضِره إلى الطاولة و بدأوا تناول الإفطار دون أن ينطق منهم أحد.

بعد تناولهم الإفطار انتقلوا جميعا لحديقة المنزل، لكن جورج تعمد تحويل الجلسة للجهة الجنوبية من المنزل بعيدًا عن

الباب الرئيسى حيث تلك الذكريات المؤلمة، فهم إبراهيم ما يحاول فعله، ثم إبتسم و هو يقول:

«لا أظن أن تغيير المكان سيمحو الذكرى من القلب يا جورج»، ثم نظر إليها و هو يسأل:

«هل من الممكن أن تنسى كاميليا ما كان بيننا من سعادة و معاناة إن انتقلت لمنزل آخر؟»، وقفت أما المقعد المتحرك ليقف جورج مكانه، ثم جلست على ركبتيها و هى تنظر لعينيه و وضعت كفيها على وجهه و عيناها تترقرق بالدموع، و قالت:

«هل يستطيع الإنسان تغيير قلبه أيضا؟ و إن إستطاع كيف يبدل سنوات عمره التى قضاها معك؟ أنت حي بالمكان وبالزمان، و سيكون اسمك أخر ما يحتضن لساني».

ابتسم و عيناه تنظرها بحنان لكنه لم يستطع حجب دموعه أكثر من ذلك و قال:

«لقد حرمتك من حقوق كثيرة طيلة السنوات الماضية، و...»، وضعت كفها على شفتيه لتسكته و قالت:

«لا تقول ذلك، لقد أعطيتني ما هو أكبر من ذلك، لقد كنت لي العائلة التى تمنيتها، لا تقول أرجووك»، كانت عيناه بدأت تسيل بالدموع فوصلت إلى كفها، فمسحت له دموعه وهى تضع قُبلة على عينيه، ثم نهضت ليكملوا طريقهم للطاولة، وأخفت وجهها الذى أصبح مبلل تمامًا من الدموع.

جلسوا على الطاولة وبينما هو يتكلم مع جورج عن ذكريات الطفولة، نظرت على يمينها لتجد بعض نباتات الريحان اليانعة،

فنهضت فى هدوء تبعتها عيون إبراهيم و ما إن لاحظ أين تذهب حتى قال:

«لاا!.. سأموت على رائحة الريحان؟!"، ثم نظر لجورج و قال:

«أول شىء سأفتقده بعد زوجتي هو الريحان، نبتة الرحمة ذات العطر الجميل»، حاول جورج إخفاء حزنه و هو يقول:

«أفهم من ذلك أنك لن تشتاق لي؟»، ضحك و هو يرد عليه قائلًا:

«لا أظن، لقد إكتفيت من شغبك طيلة حياتي يا هذا، دعني أرتاح قليلًا فى موتي، تبا لك.. بالطبع سأفتقدك».

وضعت كاميليا الريحان أمامه و أخذت منه غصن يافع لتضعه على أُذنه ليستطيع شم الرائحة وربطت على كتفه ثم عادت مكانها لتجلس و هى تنظر له دون أن تتكلم، بينما جورج يتابع إبراهيم الذى كان يسترق النظرات نحو كاميليا و يرى الدموع الحبيسة فى عينيه و كان بعقله سؤال واحد لا يفارقه، هل يتألم لفراقها؟ أم يتألم خوفًا من الأيام عليها؟ و بكل الأحوال هذا أو ذاك لما تتركها و أنت حزين كل هذا الحزن و ترسم على وجهك الابتسامة ببعض مساحيق الفرح حتى لا تنهار ما تبقى منك أمامنا، لماذا سترحل يا إراهيم.

و كعادة الأوقات الفاصلة تمر سريعًا، كان الوقت يحمله سيفه كالعادة، لكنه لم يكتفى بقطع أطراف اليوم لينتهى، بل كان يقطع مع كل ساعة يُسقطها من على جذع اليوم قطعة من روح كاميليا، و كلما بدأ النهار يفر هاربًا خلف عتمة الليل،

كانت ضربات قلبها تزداد عنفًا ، و يتصبب العرق منها على الرغم من الجو البارد ، لكن لا مفر فقد حان الوقت.

غابت الشمس.. والليل يزحف على أطرافه ليوارى تحت عتمته الأهات الصامتة ، نظر إبراهيم لهما و هو يقول:

«لقد أصبح الجو بارد هنا ، هيا ندخل فأنا أريد اللحاق بالقطار» ، ثم ضحك بسخرية لم يتعجبا منها ، و بالفعل نهض جورج ليضعه على المقعد ثم تبعته كاميليا التى كانت خطواتها تتثاقل و كأنها فى طريقها لحبل المشنقة ، و جسدها يرتعش بشدة لكن ليس من البرد.. رعشة الخوف.

ما إن دخل إلى فراشه حتى باغتها بقوله:

«لقد نسيتِ الريحان بالخارج ، لقد انشغل بالك بألم الفراق عن تحقيق أمنيتي الأخيرة» ، أسرعت للخارج لتحضره ، لكنه افتعل ذلك حتى يطلب من جورج طلبه الأخير فقال:

«جورج.. وصيتي الأخيرة ، بعد انتهاء مراسم الدفن لا تجعلها تعود هنا ، عليها أن تعود لمنزل والدها ، وانتبه جيدًا على تقرير الوفاة لا تدع هناك شك بموتي أرجووووووك».

قال له فى حزن شديد :

«لا تخف ، سأحاول اقناعها بالذهاب هناك بكل ما أوتيت من قوة ، والحقنة التى ستستخدمها من الصعب كشفها ، سيكون التقرير وفاة نتيجة هبوط حاد بالدورة الدموية ، لقد أنهيت كل ذلك بنفسي لا تخف».

دخلت عليهما و هو يقول له لا تخف فسألته:

«مما تخاف؟ تخاف عليّ من أن يتم إكتشاف سبب موتك؟ لن يكشف أحد سبب وفاتك لقد أنهى جورج كل شيء»، جلست إلى جواره على الفراش و أخذت تتحسس وجهه فشعر بتلك الرعشة التى تسرى بها، لم يعلق على ذلك فقد كان قلبه يشعر بكل شيء و يشفق عليها.

مر الوقت بسرعة شديدة على عكس مروره بساحات الإنتظار منذ فترة، كم كان الوقت يعبث معهم جميعا و لا يستجيب، نظر إبراهيم إلى جورج و هو يقول:

«لقد كانت صحبتكم هى الحياة بالنسبة لي، سأشتاق كثيرًا لحديثك يا جورج، على الرغم من أني سأرتاح منك يا رجل و لن أشغل بالي بمشاكلك و كيف أساعدك، كنت دائما صديق مزعج»، ضحك و هو ينظر له حينما لم ينطق جورج فأستكمل قائلًا:

«سامحني على كل شيء، أعلم جيدًا ما بداخلك و كم أنت شخص طيب، لم تغضب مني يومًا و تعاملت معي كأبي، و أنا لم أكتفي بذلك وفى نهاية الرحلة قمت بتهديدك كى تلبى طلبي، هل ستسامحني على ذلك؟».

نظر له جورج وانفجر بالبكاء و هو يقول:

«لست بحاجة لتطلبه، فليسامحنا الرب جميعًا.. فليسامحنا الرب».

ثم نهض و توجه صوب النافذة و أكمل بكاؤه بشدة فى حين قال له:

«كفى يا هذا لا تفعل تعال هنا»، لم يستجيب له، فنظر صوب كاميليا وجد دموعها تسيل على الرغم من ملامحها الصامتة، فقال:

«أنتِ يا كاميليا.. مهما قلت عنك لن أوفيك قدركِ، كم كنتِ قوية و متماسكة، ضحيتِ بحياتك لهذا العاجز، و لم يكفيه هذا بل حرمك من حقوقك و أقلها مشاركته قراراته، والأن تفعلِ ما لن يفهمه و لا يفعله شخص عادى، بيديك تقتلي زوجك! أدرى كم هذا صعب، لكن هناك شىء يجب أن أخبرك به، ربما منذ تلك المعاناة فشلت فى تعبيري عن حبي لك، ربما بسبب خجلي منك، ربما خوفًا من إحساسك أنى أفعل ذلك عمدًا كى أبقيك معي، كنت أخاف أن أخسرك، لهذا أنا أطلب الموت، كيف أعيش دقيقة بدونك يا كاميليا؟ كيف؟».

سقطت منه الدموع بينما هى و دون أن تشعر إرتمت على صدره و هى تنوح بشدة و تقول:

«بالآخرة لن أتمني غيرك زوج، و لن أعيش بدونك، روحي ستذهب مع روحك و سيبقى جسدى مُعلق هنا حتى موعد اللقاء، ستُحَرَّم عليّ الضحكة حتى لحظة خروج روحي، و سأضحك وقتها و أنا أنطق إسمك حينما تفيض روحي».

مرت دقيقة على هذا الحال دون أن يتحرك أى منهما من مكانه، لكن قاطع الصمت وهو يقول:

«كنت أود أن أودع أسامة، هل تتصلين به رجاءً؟»، رفعت رأسها من على صدره تقول:

«لا تخبره شيء أرجووك»، ضحك و هو يقول:

«لا تخافِ لن أعطه لحظة نصر»، ثم ضحك بشدة و هى تلتقط الهاتف و تتصل به، لكنه لم يجيب الاتصال، فقال:

«يبدو أن حظه سيظل تعيس دائما، أبلغيه شكري على ما قدم لي»، ثم نظر لجورج و قال:

«هيا يا طبيب، لقد تأخر الوقت، دعونا ننهى ذلك».

انتفضت كاميليا فور سماع ذلك، فقد كانت ترهب تلك اللحظة و تتمنى أن توقف الوقت كى لا تحدث، لكنه للأسف لن تستطيع، فنظرت له ثم نهضت والتقطت حقنة من داخل أحد أدراج المنضدة و عادت لتجلس جواره، و كذلك جلس جورج و هو يحتضنه، ثم نظر إلى كاميليا و هو يقول:

«لا تخافِ، إفعليها دون تردد و لا تخافِ».

نظرت له و هى تحملها فى يدها دون أن تتحرك واستمر يقول لها لا تخافِ، حتى تحركت يداها بإرتعاش و بالفعل قامت بوضع الإبرة فى وريده و هى تنظر له حقنته المادة السامة فى بطء، و ما إن انتهت حتى حدث شيء غير متوقع، فقد نهضت فجأة و هى تصرخ و تقول:

«ماذا فعلت؟ ماذاااا فعلت؟ إبراااهيم..لالالا.. أرجووك لا تذهب، لا تذهب»، دمعت عيناه من انهيار زوجته و قال:

«لن أذهب فأنا أعيش داخلك، أليس كذلك؟ تعالِ أجرك وأحضرِ الريحان أريد أن أشم رائحتك مع الريحان، أرجوووووكِ».

أخذت تضرب على رأسها كالمجنون فنهض جورج مسرعًا

محاولًا تهدأتها و قال:

«إنتهى يا كاميليا، أرجوك اجلسي» أمسك بها ليجلسها جانبه و أحضر الريحان على صدر إبراهيم، ثم احتضنته فى شدة و قالت:

«إبراهيم لا تذهب»، فقال لها:

«دعيني أذهب قبل أن أعرف منكِ ما تخفيه عني، إهدائي»، كعادته يحاول فصل الأمور بالتشتيت، فقد ألقى عليها تلك الجملة كى يجذبها من بحر البكاء، و بالفعل نظرت له، وقبل أن تنطق لاحظت تغير لون وجهه، و بدأ يشعر بضيق بالتنفس ودوار خفيف، فنظرت لجورج الذى كان يبكى و هو يربط على كتف إبراهيم، لكنها لا تدرى ما تفعل فى حين قال لها:

«سأذهب الآن، ألن تخبريني؟» ثم أخذ يتنفس بصعوبة و بدأ لونه يتحول للأزرق، و هنا مالت على أُذنه و همست له ببعض كلمات، هنا جحظت عيناه فى قوة و تسارعت نبضات قلبه أكثر و ليس بسبب المادة السامة، حاول الصراخ وهو يقول:

«كام...ليا.. لاا..!!!!» ثم أمسك يده وانهارت بالبكاء فى حين بدأت أنفاسه تتسارع أكثر فأكثر وعيناه تتسع أكثر فأكثر ثم انتفض نفضة قوية.. و انتهى كل شىء.

❖ ❖ ❖

أن تقتُل.. هذا الشعور وحده لتدمير حياتك رعبًا، وعندما تقتُل الأنثى يكون الوضع أصعب، فما بالك حينما تقتل أنثى زوجها ومن تحب؟ هذا الشعور وحده قاسٍ جدًا حد الموت، لا يتستطيع

تحمله بشر، أبدًا لن يستطيع.

جلست كاميليا فى حالة صدمة بينما جورج لازال يبكى و هو يُقبِّل رأسه، سقطت الحقنة من يدها و هى لا تشعر، ثم نهضت و هى تقول:

«لقد مات.. لقد مات!».

نهض جورج مسرعًا يمسكها و هى تهذى بكلمات غير مفهومه، لكنها فجأة صرخت قائلة:

«إبراااااااهيم.. لا تذهب، لا تذذذهب».

حاول جورج إبعادها عن الغرفة لكنها قالت له:

«هل مات مسمومًا أم مات بالحقيقة؟»، نظر لها بدهشة مما قالت و هو يسألها:

«حقيقة؟! هل أخبرته؟»، نظرت له و عيناها تجحظ بشدة والعرق يتصبب منها و قالت:

«كان لابد أن يعرف لما فعلت ذلك، لم أخفى عنه شىء بحياتي، مهما كانت الحقيقة قاسية كان يجب أن يعرف»، وقبل أن يتكلم أفلتته و أمسكت الهاتف واتصلت بالشرطة وقالت:

«أريد أن أُبلغ عن جريمة قتل.. لقد قتلت زوجي العقيد إبراهيم عبدالعزيز»، كانت حركة سريعة وصادمة لجورج، فلم تتفق معه على ذلك، حاول الركض مسرعًا ليلحقها قبل أن تنطق لكنها كانت أسرع وأبلغت عن جريمة القتل.. وأغلقت الهاتف.

لم تتحمل الألم فى رأسها فصرخت وهى تجثو على ركبتيها قائلة:

«أةةةة.. رأسي»، ركض جورج مسرعًا صوب المبرد ليحضر

بعض المُهدئ ليحقنها به، لكنه لم يستطع تمييز الوريد، فكان خوفها و صدمتها كفيلة ليهرب الدم من جسدها، لكنه حقنها بالعضل، وهنا و قبل أن ينهضها وردها إتصال.. إنه أسامة.

أجابه جورج فى صوت مهزوز، فلاحظ أسامة هذا الذى صرخ فيه قائلا:

«أعطنـي كاميليـا فورًا»، رد عليه جورج أنها مشـغولة لكنه كـرر طلبه فى غضـب، لكنها نظرت له و طلبـت منه الهاتف، وقالت:

«نعم يا أسـامة»، كان صوتها يرتعش و كأنها تُمسك بسلك كهرباء عارٍ، فقال لها:

«ماذا بك؟ و لماذا أجاب جورج؟».

بكت قبل أن ترد عليه، فصرخ بها قائلًا:

«ماااذا حددددث؟"، فقالت و هى تبكى:

«لقـد مـات إبراهيـم.. لقـد أعطيتـه ما يريـد»، كانـت تلك الكلمـات صادمة لأسـامة فلـم يدرى ما يفعـل، لكنه صرخ بها قائلًا:

«مـاذاا فعلتِ؟ يالهـى، أيتها الحمقاء مـاذا فعلتتتتِ؟»، لم ترد عليه و أكملت بكاؤها، حينما أكمل قائلًا:

«لا تلمـسِ شـىء وأبـقِ فى مكانـك، لا تتحـركككِ»، فقالت له:

«انتهى الأمر.. الشرطة بالطريق».

صرخ بها يقول:

«تبااا لكِ.. لقد فرطتِ بحياتك من أجل هذًا العاجز، لمااااذا؟ كانت الحياة أمامكِ أيتها التعيسة».

صرخت و هى ترد عليه من شدة الانهيار قائلة:

«عن أى حياة تتحدث؟ لا حياة لي بدونه، أنت بعيد عن ذلك تمااامًا»، طالما كانت تلك الكلمات تدهس قلبه و تضع مشاعره بالمفرمة، على الرغم من تكرارها إلا أن هذه المرة الوضع مختلف، فى السابق كان الأمل البعيد يداعبه، الآن لا أمل، فتلك الجريمة معناها موتها بالإعدام، لكنه أسرع بالسيارة محاولًا اللحاق بها، وقال:

«لا تتحركِ أنا قادم»، لكنها همست له فى تحد و قالت له:

«لا داعى لذلك، لقد انتهت كاميليا يا أخى العزيز، انتهت وحان وقت كشف الحقائق»، ثم أكملت جملتها و سط صدمة أسامة مما يسمع، لقد كانت كلماتها قوية و كفيلة لتقلب حياته، و بالفعل لم تنقلب حياته فقط.. بل والسيارة.

❖ ❖ ❖

الفصل السابع عشر

جلست كاميليا أمام ضابط الشرطة، كان وجهها شاحب جدًا و يبدو عليها حالة الصدمة، نهض ثم استدار حول مقعدها وفجأة توقف و هو يسألها:

«لماذا قتلتي زوجك؟»، نظرت للأرض دون أن تنطق، فأكمل دورانه حول المقعد واتجه صوب المنضدة ليمسك حافظة نقود، فتحها و أخرج منها هوية إبراهيم، و قال:

«إبراهيم عبد العزيز؟! أليس هذا الرجل الذى أثار ضجة منذ أيام بطلب القتل الرحيم على التلفاز؟"، لم ترد عليه، فنظر لجورج الذى أجابه:

«نعم هو»، فقال له:

«أخيرًا تحدث أحدكما، من أنت؟»، أخرج له جورج هويته وهو يقول:

«جورج جبرائيل طبيب العائلة»، لمعت عينا الضابط و هو يقول:

«طبيب!! و ماذا كنت تفعل هنا بهذا الوقت؟ هل كنت تحضر لها السم؟"، وجه إتهامه لجورج و هو يمسك بيده كيس من البلاستيك بداخله الحقنة التى كانت مع كاميليا، و قبل أن يتحدث جورج نطقت كاميليا:

«جورج ليس فقط طبيب العائلة، فهو صديق طفولته، وكان يحضر يوميًا يجلس مع المرحوم و لا يدرى شىء عن ذلك

المخطط» ، نظر لها الضابط و قال:

«المرحوم!! مممم.. و هذا المخطط كان بطلب زوجك المرحووم الذى طلب ذلك من القانون و ما إن رفضه طلبه منك وأنت بمنتهى البساطة نفذتِ طلبه ، هكذا و ببساطة» ، ثم نظر إلى جورج و كأنه يقول له لن استبعدك عن تلك النقطة فأنت شريك لها ، لكن كاميليا لم تجيب ، و حاول الضابط كثيرًا طرح أسئلة عليها لكن دون رد ، و فجأة خرج المسعفون يحملوا الجثة و ما إن رأتها حتى نهضت دون أن ينتبه أحد ، و بسرعة لحقها الشرطى المرافق و منعها و لكنها أخذت تصرخ:

«اتركووونى.. اتركووونى أودعه» ، أشار له الضابط أن يتركها ، فكشفت الغطاء عن وجهه و نظر له و دموعها تسيل على جسده ، و قالت:

«أرجووك لا تخف ، سألحق بك قريبًا ، و إن لم أحضر لوداعك أرجوك سامحني» ، ثم انهارت من البكاء و جثت على الأرض وسط دهشة الحضور ، فهى المشتبة به الأول ، و يوجد اعتراف منها بالجريمة ، قتلت ذلك العاجز دون أن تشفق عليه - هكذا يراها القانون - و مع كل هذا تنهار و تبكى و تطمئنه؟! كان ذلك عجيبًا.

انطلقت سيارة الإسعاف صوب المشفى ، و من خلفها سيارة الشرطة و بها كاميليا و جورج ، كانت أول مرة تختلف طرقهما ، أول مرة يذهب إبراهيم وحيدًا فى طريق ، و هى فى طريق ، لكن عليها أن تعتاد ذلك فقد انتهى الأمر.

فـى اليـوم التالـى تم عرضهـا علـى النيابة، و قـد حضر أحد المحامين من مكتب أسـامة بعد أن طلب جورج مكالمة هاتفية ليخبـر المحامـى و بالفعـل حضر أحمد مسـاعده، ومـا إن دخل الغرفـة حتى طلـب الاختلاء بموكليه قليلًا، جلـس على المقعد المقابل لها و قال:

«البقاء للّه.. للّه ما أعطى و للّه ما أخذ»، نظرت له فى انكسار و هى ترد عليه:

«لا أراكم اللّه مكروه، غاضب منى لهذه الدرجة؟ لم يستطع الحضـور فأرسـلك؟»، نظـر إلى الأرض و سـاد الصمـت قليلًا، لكنها سألته:

«هـل أخبـرك و لهـذا أنت لا تسـتطيع النظر لي؟ مـاذا أخ...»، قاطعهـا بصوت مكتوم و كلمـات زادت من صدمتها، فما قاله كان قاس جدًا عليها حتى جحظت عيناها، قاطعها قائلًا:

«لقد كانت التعزية فى سـيدى و ليسـت فى العقيد إبراهيم، لقد توفى فى حادث سـيارة أمس، والجنازة اليوم فى نفس موعد جنازة العقيد».

كان ذلـك صادم جـدا لها، لم تكن تتوقع هـذا، لقد كان يتحدث لها و أغلقت الهاتف و لم تسـمع شـىء، هل حدث بعدها؟ هل هذا حقيقى أصلًا، لكنها اخيرًا انفجرت بالصراخ قائلة:

«لاااااااااااااا.. أنـت تكـذب، لقـد تحدثنـا بالأمـس، لا تقـل ذلك، هذا الملعون دائمـا يفتعل تلك الأكاذيب، إنها إحدى كذباته لكى لا يحضر هنا، أنت كاااذب.. كاااااذب».

كان صوتها عال جدا حتى التفت الضابط الذى كان يقف خارج الغرفة للصوت فدخل مسرعًا ، فوجدها على الأرض تبكى و تضرب الأرض بيديها ، لم يفهم ما حدث ، فسأل الشاب الذى قص عليه الموقف ، و هنا صرخت و قالت:

«هذا يعنى أننى قتلت زوجي و أخي بيوم واحد؟ و بنفس الخبر؟ يإلهى.. ماذا فعلت؟» ، ثم نهضت بسرعة و أمسكت كف أحمد تحاول أن تتوسل إليه و تقول:

«أريد أن اودعهما ، أرجووووك دعنى أرى أخى لآخر مرة أرجووووووك» ، ثم جثت على ركبتيها فى انهيار تام ، فى حين طلب الشاب الإذن يقابل رئيس النيابة محاولا معه للسماح لها بتأدية واجبها الأخير لهما.

قرابة الساعة أو يزيد قليلًا جلس الشاب عند رئيس النيابة يتحدث معه و يُجرى بعض الاتصالات حتى استطاع فى النهاية أخذ الموافقة على ذهاب كاميليا وسط حراسة لوداع زوجها و أسامة ، وفى عجالة تم تنفيذ الأمر و بصحبة الضابط و معه شرطيان وكاميليا بالأصفاد وصلًا فى الموعد تمامًا إلى المقابر حيث الجنازتين.

سنوات قضاها أسامة يحلم بفرصة لإستعادة كاميليا ، حاول وفشل ولكنه لم ييأس ، فقد كان يحبها حب لا تستطيع الحروف وصفه ، وحينما واتته الفرصة بموت إبراهيم؛ رحل وبنفس الساعة ، على الرغم من رفض كاميليا التام لطلبه ، على الرغم من انعدام الأمل ، لكنه رحل دون التقاط صورة سعيدة مع الحظ و لو بالتمنى.. أقدار.

إبراهيم.. رجل حاول محاربة العجز، لكن صرعه اليأس تحت عجلات الزمن ليسحب من حياته من يحب، و على الرغم من حبه الشديد لزوجته؛ إلا أنه أراد الموت ليسبقها قبل أن يبكيه القدر عليها، فكيف يعيش إن إختارتها يد القدر و تركته؟ لو كان يملك إصبع واحد يتحرك لفعلها بنفسه و لا يختبرها بهذا القدر.. أقدار.

وقفت محاطة بالحضور والجميع تركوا الجنازة و يتبادلون النظر خلسة وعلنا نحوها، فالكثير يجهل سبب حالتها تلك، وربما الجميع، لكنها كانت بعالم آخر، تكفيها تلك المعاناة التى تجعل من العاقل مجنون، يكفيها شعورها بالذنب نحو أسامة أنها سبب موته، ويكفيها تحملها مسئولية موت شريك عمرها.

كانت تتابع مراسم الدفن فى صمت و عيناها كتلة حمراء من الدموع، حتى إنتهى الدفان و أغلق القبور و قبل أن يهم الناس بالإنصراف قالت:

«بيوم واحد.. ذهب أخي و زوجي، والعجيب أنهما ذهبا سويًا.. بيدى»، توقف الناس وبدأت همساتهم تعلو من تلك الجملة، ونظراتهم تحوم حولها فى ترقب لما ستقول، فإستطردت:

«أسامة.. أربعة و عشرون عامًا بنفس المنزل كنت لي أخ وصديق، كثيرًا ما ضحكنا، وكثيرًا ما تشاجرنا، حتى جاء اليوم لأقطع أربعة و عشرون عامًا أخرى بمنزل آخر، معك يا إبراهيم.. كانت هى عمري كله، لم يقل حبي لك لحظة ولكنه كان يزيد، نصف عمرى مع أخى، و مثله تمامًا مع زوجي، وفى ساعة واحدة ضاع النصفين، ضاع الرجلين، ضاع المنزلين، وكأن حياتى تتغير دائما عند رقم أربعة و عشرون، أمر مضحك».

نظـرات الشـفقة تطير حولها مـن على أغصـان العيون لتحط على كتفها المتثاقل، لكنها أكملت:

«سـامحوني أرجوووكمـا، فأنتما علـى علم تام بمـا أحمل، سامحني يا إبراهيم إن خنت عهدك، سامحني يا أسامة إن قتلتك بما قلت، سـاامحو..»، و قبل أن تنطق الكلمة، خارت قواها و لم تعد تتحمل، فقد دارت الأرض بها و أسودت عيناها شيء فشيء.. فغابت عن الوعى.

❖ ❖ ❖

استعادت كاميليا وعيها لتجد نفسها طريحة فراش بالمشفى، يـد مكبلة بالأصفاد، والأخرى مـزوده بأنابين المحاليل، كان رأسـها يؤلمها وبشـدة، ولا تدرى كم من الوقت مر عليها عنها، كانـت تهـذى بكلمات مبهمة لم تسـتطع الطبيبـة المرافقة لها ولا الشـرطى فهمها، لكن مع مرور الوقت بدأت تُبصر المكان لتجد من حولها فتسألت بصوت واهن:

«ماذا حدث؟»، أجابتها الطبيبة أنها بعد مراسم الدفن سقطت مغشـي عليهـا، وأحضروهـا للمشـفى بالأمس، لم تعلـق على ما قالت لكنها حاولت أن تبلل شـفتاها بلسانها دليل على عطشها، فنهضت الطبيبة مسـرعة لتعدل جلسـتها ثم وضعت كوب الماء على شفتيها، شربته كله فى رشفة واحدة، فسألتها الطبيبة إن كانت تريد المزيد فقالت لا.

حاولت الطبيبة التحدث معها لكن حالتها كانت سيئة، وألم رأسها يزداد كلما نظرت للضوء، كانت تحرك رأسها من الألم

و تغمض عينها فى حين تتحدث لها الطبيبة و فجأة صرخت تقول:

«الضووووء.. لا أستطيع تحمل الضوء»، اندهشت الطبيبة من تلك الجملة و راودها الشك، فنهضت من مكانها لتغلق الضوء فحاول الشرطى منعها عن ذلك فقالت له الطبيبة:

«إنها تتألم من الضوء و سأشعل المصباح الصغير، هل تخاف الظلام أيها الشرطى أم تخاف من هرب تلك المسكينة المكبلة من كل إتجاه؟ كن رحيمًا»، لم يُعلق على ما قالت و تركها تفعل ما تريد و وقف يتابع فى صمت، فقالت لها:

«افتح عينيك الآن، هل تشعرين بتحسن؟»، فتحت عيناها قليلًا ثم أومأت برأسها و هى تقول:

«نعم قليلًا.. أشكرك، أين جورج؟»، لم تتعرف الطبيبة على الإسم فسألتها:

«من جورج؟ أنتِ وحدك منذ أتيت أمس و لم يأتى أحد لزيارتك»، تداركت كاميليا الموقف و تذكرت أن جورج رهن الاعتقال و لن يُسمح له بالحضور هنا، لكنها أجابت الطبيبة فى حزن:

«إنه طبيبي و صديق العائلة، والشرطة تتحفظ عليه أيضا معي"، هنا نطق الشرطى وقال:

«نعم.. لقد أمرت النيابة أمس بحبسه خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق لإدانته بمساعدتك فى قتل زوجك، و لم ينتهى التحقيق بعد»، بهتت مما سمعت و قالت:

«جورج مظلووووم، لا يعرف شىء عما حدث، أنا فعلتها وحدى

وأنا من أحضر تلك المادة السامة ، أرجوك أريد أن أرى المحقق» ، وضعت الطبيبة يدها على صدرك كاميليا و هى تقول لها : «إهدائى قليلًا فأنت بحاجة للراحة ، و حينما يأتى المحقق أخبريه بما تريدين ، لكن هل تعانين من مرض معين؟» كان سؤالها مباغت أربك كاميليا التى أخفت عيناها بعيدًا و هى تقول:

«لا .. لا أشتكي من شىء ، فقط بعض صداع الرأس نتيجة حادث تعرضت له منذ فترة» ، حاولت الطبيبة تصديق ذلك وأكملت كاميليا حديثها عن الجراحة التى تعرضت لها منذ فترة قصيرة ، فسكتت الطبيبة و نظرت لها قليلًا ثم قالت:

«لماذا قتلتِ زوجك؟».

قبل أن تجيبها بشىء دخل المحقق الغرفة و نظر لها و قال:

«كيف حالها الآن؟» ، نهضت الطبيبة و نظرت له فقالت:

«تعانى من ألام بالرأس و حالة هبوط بالدورة الدموية» ، ثم نظرت لكاميليا واستطردت:

«وصدمة عصبية .. هذا التشخيص المبدئى فهى استعادت وعيها منذ قليل» ، ثم نظرت له و قالت:

«تحتاج لراحة على الأقل يومان و من بعدها سنحدد حالتها ، من فضلك الشرطى المتواجد هنا لا يجب أن يبقى بالغرفة ، مكانه بالخارج ، انها مكبلة بالأصفاد والغرفة مؤمنة و لن تهرب ، لن أسمح بوجوده هنا» ، تَفَهّم ما قالته و أشار له بالانصراف ثم قال لها :

«نعم مكانه بالخارج و أنا طلبت منه البقاء ليخبرني عندما تستيقظ ، سيكون بالخارج» ، ثم نظر إليها فى حزم ونقل نظره

صوب كاميليا و قال:

«زال البأس» ثم خرج.

جلست الطبيبة إلى جوارها ونظرت لها فى عطف قبل أن تقول:

«أنا لست طبيبة الآن، هل من الممكن أن أكون صديقة وتخبريني كل شيء؟»، نظرت لها كاميليا فى حزن و قالت:

«لأني أحببته بصدق، أمضيت نصف عمري معه و أحببته بكل يوم أكثر من سابقه، إحدى عشرة عام منها و هو بعجز تام، لم أتركه لحظة، كنت له كل شيء فهو يستحق، لكنه كان يعاني كثيرًا، والعام الأخير النكبات كانت أقوى منا لنصمد، و لم يعطيه القانون ما يريد، كان واجبي أن أمنحه الراحة، لقد تعذب كثيرًا، هل حدث يومًا و تعطل بك المصعد ساعة وأنت بالداخل دون نور، دون حركة، والأوكسجين يتناقص مع كل زفير يخرج منك؟ هل كبلك أحد بأحبال قوية و رأيت ابنتك تُغتصب و تموت أمامك؟ هل تتحملِ التفكير فيها حتى؟».

نظرت لها الطبيبة فى حزن شديد مما سمعت، فالواضح أن كاميليا ضحية و ليست مذنبة، و كل ما فعلته كان من واجب الزوجة على الرغم من كون هذا الواجب مُجَرّم و يعاقب عليه القانون، لكنها أنثى فشعرت بها كأنثى، نهضت الطبيبة من مقعدها لتجلس على الفراش جوارها و ربطت بكفها على كتف كاميليا، التى بدأت تقص لها قصة حياتها مع إبراهيم وكم من معاناة مرت بهما حتى انتهى الحال بتلك النهاية، و ما إن إنتهت

من سـردها كانت الطبيبة غارقة بالدموع، لم تشعر أنها تبكى فما كانت تقصه عليها موجع.. و جدًا.

نظرت لها والدموع تغرق وجنتيها و قالت:

«لو قص عليّ أحد غيرك هذا لن أصدقه، هذه المعاناة بالفعل لا يتحملها الكثير، خاصة على رجل مثله، وأنثى تحب زوجها مثلك، لكن هناك شىء خلف السطور أراه و أنتِ لم تشيرى إليه، لماذا تبدل حالك من رفض تام إلى القيام بتلك التضحية؟».

نظرت لها كاميليا و هى لا تجد ما تجيبها به، فقالت:

«هذا كل شىء، أرجووكِ لا تسألِ عن شىء آخر، يكفيني هذا العذاب»، تفهمت ما تحاول أن تقول، و ربما كان لديها شكوك بشىء، فقد أشارت كاميليا دون قصد منها أو ربما بسبب صراحتها و نيتها الصافية لشئ عذبها و سر أخفته عن زوجها، لكنها لا تريد أن تُفصح عنه.

تحركت الطبيبة صوب الباب ثم نظرت لها و قالت:

«لن أخبر أحد شىء، لكن رغبتك فى حبل المشنقة انتحار، فأنتِ تتعجلِ الموت، لكن سأقولها لك، بقاؤك بالمركب المثقوب وسط البحر، أفضل من القفز منه و أنتِ لا تجيدِ السباحة».

و خرجت بعدما تركت لها تساؤل مقلق.. لماذا قالت ذلك؟.

❖ ❖ ❖

هل من الأفضل أن تبقى فى سفينة مثقوبة على وشك الغرق؟ أم تقفز بالبحر و أنت لا تجيد السباحة؟

بـكل الأحوال أنت ميـت، لكن هل لو كان قـرارك إختيار القفز و إستعجال الموت حق مشروع لك؟ أليس هذا انتحار؟

وقفـت كاميليـا داخل قفـص حديـدى بسـاحة المحكمة، المـكان ممتلـئ يشـغله الكثيـر مـن المصوريـن والصحفييـن المتابعيـن للقضيـة، فبعدمـا أثـار زوجهـا الراحـل قضيـة القتل الرحيم و أحدث ضجة هائلة بالشـارع و تم رفض مساعيه، تحقق له ما يريد بشـكل غيـر قانونى عن طريق زوجتـه، واليوم زادت الإثـارة بقضية غريبة من نوعها لزوجـة قتلت زوجها لتنفيذ رغبته بالموت.

كانـت النيابـة تكيـل لهـا اللكمـات القويـة بوصفهـا تارة بالمجرمـة و تـارة آخـرى بالخائنة و مـرات غيرهـا بصاحبة الدم البارد، لكنها كانت تقف بثبات و إتشحت بثوب زوجها الراحل فى أخر لحظاته، كيف كان يتعامل معها بصلابة و هى كانت تنظر له بتعجب كيف يفعل؟.

أمـا الدفـاع فحاول كثيـرًا إلتماس العذر لهـا و أعطاها لقب الزوجـة المُحبة، و أشـار بعض مرات أنها تُعانى من حالة نفسـية نتيجة ما مرت به ليكون الحكم عليها بشئ غير الإعدام.

لـم تنطـق بكلمة تحـاول بها مقاطعـة الطريق، فكل شـىء بالقانون يوصلها للمشـنقة دون رحمـة، الدلائل، اعتراف كامل مـع تمثيـل للواقعة، و نفت تمامًا اشـتراك جورج بذلك و شـرحت بالنيابة كيف حصلت على السـم، لكن العجيب أن جورج لازال حتى هذه اللحظة رهن الاعتقال!.

بعد انتهاء الدفاع من مرافعته، و محاولات إتهامها بالجنون، حاول القاضى الوصول لقرار للفصل قبل الحُكم، فسألها:

«كاميليا.. سؤال للمرة الأخيرة، لماذ قتلتِ زوجك؟».

نظرت للقاضى ومن بعدها للمحامى الشاب ثم قالت:

«لأنه استحق ذلك».

ارتفعت الهمهمات داخل ساحة المحكمة متعجبين من إجابتها، فقد كان رد فعلها غريب جدًا و إجابتها كفيلة بوصول القاضى بالقضية إلى المشنقة، لكنه كان صبورًا، فسألها:

«لماذا استحق ذلك؟ هل كان يسيء معاملتك؟».

ابتسمت وهى تنظر له فقالت:

«لن تجد بالحياة زوج يعامل زوجته بكل الإحترام كزوجي، لم يكن عطوفًا فحسب، لاا.. كلمة عطوف أقل ما تصف هذا الرجل، مُحِبًا، مخلصًا، رغم عجزه كان دائم الإبتسامة و لا تفارقه روح الدعابة، والأهم من ذلك أنه كان رجلًا فى زمن قل فيه هذا اللقب، كان يعانى فى صمت و يبتسم، ودع أخاه، ثم زوجة أخاه، ثم ابن أخاه الشاب الذى كان ابن لنا، ثم المرافقة المسكينة نجوى، التى تم اغتصابها و بدم بارد أمام عينيه و لم يستطع تحمل عجزه و كان يموت بسبب شعوره بالذنب، رجل عاش كل هذا و أكثر، ألا يستحق بعد كل هذا الراحة؟».

كان وصفها لحالته دقيق جدًا يلمس الروح و يحرك المشاعر الإنسانية ليشعر بمعاناتهما الحضور، لكن هذا لا يُحرك ساكنًا فى مشاعر القانون فهى لا تتأثر.

نظر لها القاضى فى حزم وقال:

«و أنت من كان لها الحق فى تقرير ذلك و تنفيذ قراره، على الرغم من علمه أن قتل النفس مُحَرّم و مُجَرّم أيضا، وبكل سهولة فعلتِ ذلك».

امتنعت كاميليا عن الرد فكانت كلمات القاضى الأخيرة تحمل رائحة المشنقة بشدة، فأكتفت بما حققت، ثم نظر القاضى للأوراق التى أمامه وقال:

«بعد الإطلاع على القضية، وسماع النيابة والدفاع، قر...»، فجأة اقتحم جورج ساحة المحكمة بدون إذن، وركض وهو يصرخ:

«سيددى القااضى إنتظر أرجووك»، منعه الشرطة من الإقتراب لكنه أكمل صراخه و حاول الإفلات منهم، فتوقف القاضى و نظر نحوه و قال:

«من أنت؟"، فى حين بدأت كاميليا تصرخ و تقول:

«جوررج لا تنطق بشىء، أرجووك لا تفعل بالله عليك، لا تفعل، ارتكني أمووت»، لم ينظر لها فى حين لفت إنتباه القاضى كلماتها فسمح له بالدخول، و سأله:

«ماذا تريد أن تقول»، لم تكف كاميليا عن الصراخ بل زادت و هى تبكى بشدة و تتوسل له أن يصمت، لكنه نظر لها ثم قال:

«كيف سيعيش هذا العاجز بعدما تموت زوجته؟ من سيطعمه؟ من سينتبه عليه؟ من سيسغير به ملاابسه المتسخة بفضلاته كل صباح قل لي أنت من؟ كيف تتركه يعانى كل هذا من دونها؟ التى القاتلة المتوحشة التى تقتلوها جميعا الآن

قتلت زوجها حتى لا يعيش وحده، لأنها مصابة بسرطان بالمخ بمرحلة متأخرة و لن يجدى معها علاج، لأنها تحتضررررررررر».

ارتفعت الأصوات بساحة المحكمة فور سماع ذلك، و حاول القاضى السيطرة على الوضع، نظر صوبها، لكنها لم تعد تصرخ، فقد كانت تدور حول نفسها و بحركة مفاجئة سقطت أرضًا..

❖ ❖ ❖

«كنت أعلم ذلك»

همست الطبيبة بتلك الجملة لجورج الذى كان يجلس بمقربة منها داخل المشفى، فقد أجل القاضى القضية بعد ما سمع و ما حدث لها، و تم نقلها للمشفى مرة آخرى، و هناك قابل جورج نفس الطبيبة التى كانت معها، ليقص عليها القصة كاملة هذه المرة دون حذف، فقالت:

«قلت لها البقاء بالسفينة المثقوبة أم القفز بالبحر و أنت لاتجيدِ السباحة فسكتت، كنت أشك بالأعراض حينما كانت تشتكى من الضوء، حاولت إقناعها بكلماتي لكنها كانت تتعجل الموت و ترمى بروحها للتهلكة، كانت تريد الانتحار.. و لا زالت».

نهض جورج ليلتقط كوب من الماء، ثم نظر إليها قبل أن يشرب وقال:

«لقد أخفت عليّ أنها ستتصل بالشرطة، لقد حاولت منعها دون جدوى، كان تقول لي سأتوقف عن العلاج، أظنها كانت على يقين أننى لن أتركها تموت كذلك و سأبذل جهدى، حتى

مـع انقطـاع الأمل، فحالتها شـبة مسـتحيلة وقتهـا ، والأن و بعد الأشـعة والفحوص، أيام قليلة و ربما أسـابيع، لكنها لن تتحمل هذ الألم دون علاج».أومأت برأسها فى تَفَهُّم لما قال، ثم قالت له:

«و ماذا تنوى الآن؟».

نظر جورج لكوب الماء فى يده، ثم شرب منه نصفه، و نظر إلى الطبيبة و هو يسكب ما تبقى منه، فنظرت له فى صدمة وقالت:

«لكن هذا خطير جدا»، نظر لها وقال:

«لا تخافِ، لن يفهم أحد وسـيتم الأمـر فى عدم وجودك»، ثم نهض متجها صوب غرفتها.

طلب من الشرطى السماح له بالدخول، و بالفعل سمح له وما أن دخل الغرفة رأى كاميليا تبكى فلاحظت وجوده ثم صرخت قائلة:

«أخـرج مـن هنا ، ألم تكتفـى بما فعلت، لمـاذا قعلت ذلك يا جـورج؟ لماذاااا؟»، اقترب منها و هو يربط على كتفها ، ثم جلس و نظر لعينها قائلًا:

«انهـا وصيـة زوجـك الأخيـرة، لم يرسـلك لإحضـار الريحان هكذا ، كان يتذكره و نحن بالخارج لكنه تعمد تـأجيل طلبه حتـى تذهبى مرة آخرى ليتحـدث معي، طلب مني تخفيف ألامك وأن أكون معك، و سـأفعل ذلك».

نظرت له فى إستفهام وقالت:

«كيف ستفعل ذلك وأنت حطمت كل شىء؟»، فقال لها:

«بنفـس الطريقـة لكـن دون أن أتصـل بالشـرطة وأخبرهـم أننى القاتل، سـأبدأ اليوم و غدًا مسـاء سـتكونِ عند إبراهيم،

سأمنحك موت رحيمًا».

كانت كلماته مفاجئة لها، فكانت تظن أن جورج سيعوق ذهابها له، وسيقف فى وجهها والموت، لكنه فعل العكس تمامًا، سينفذ وصية إبراهيم، فأومأت برأسها فى استجابة وهى تبتسم و قالت:

«لا أدرى ماذا أقول، لكن أستحلفك بالله ألا يكون ذلك سبب فى ضرر لك، عاهدني بذلك»، أمسك يدها و قال:

«لا تخافِ، أعدك ألا يشعر أحد، فأنا طبيب وأعرف جيدًا كيف أفعلها»، هنا دخلت عليهما الطبيبة فحاولت كاميليا إخفاء الابتسامة حتى لا تفهم، لكنها صُعِقت حينما سمعتها تقول لجورج:

«ساعة و ستكون الأمور متاحة، وبنفس الموعد غدًا، سأكون خارج المشفى وقت ما تفعل، لن يلاحظ أحد»، ثم نظرت لها وابتسمت قائلة:

«لا تخافِ، أنا لم أرى شىء، لم أسمع شىء، كل ما أفعله لأنى أشعر بك»، ثم غادرت ومن بعدها جورج لتجلس كاميليا وكأنها تستعد للقاء هام، كانت تستعد للذهاب لزوجها، وعلى وجهها ابتسامة عريضة، وقالت تحدث نفسها:

«انتظرني غدًا، و لا تنسى الريحان».

وعاد الوقت يتثاقل عليها، و هذا اليوم عبر كسنة كاملة، لكنه فى النهاية عبر.. وعبرت معه للطرف الآخر.

❖ ❖ ❖

النهاية

الخامس والعشرون من يناير عام ٢٠١٩

«كانت تلك البداية، قصة عائلتي الصغيرة التى تساقط أفرادها كتساقط قطرات العرق من على جبين أنثى وضعت جنينها للتو، عائلتي التى استمر مخاضها إحدى عشرة عام ويزيد، كلما زاد ألم مخاضها لفظت من رحمها جنين ميت.

تلك المعاناة فتحت باب خلفها، ربما للبعض انتهت، لكن مع بقائي على قيد الحياة لا تنتهى، لقد زاد التهابها كلما مر علىّ مخاض مماثل، و ربما أسواء، ربما انتهى بي الحال لأقف أمامكم الآن والبعض منكم يتعجب كيف لي أن أكون بمثل هذا الهدوء؟ سأجيبكم فالأمر جدًا بسيط، اليأس يا سادة إن ركب على قلب إنسان يرهقه، يقوده لطريق النهاية مبتعدًا عن استراحات الأمل، كيف ضحك إبراهيم من القلب و هو على بُعد خطوات من الموت؟ كيف إبتسمت كاميليا و حاولت تلوين وجهها بمساحيق التجميل لتبدو أكثر جمالاً بآخر يوم لها؟ من يعيش مع اليأس يا سادة يتمنى الموت و لا يستطيع الوصول له، وإن وصل للموت يستقبله بقلب فرح، لهذا و من بعد عائلتي منحت تلك الإبتسامة لغيرهم و غيرهم، لكن إلى هنا تنتهى الرحلة».

وقف جورج داخل ذلك القفص الحديدى والجميع ينظر له فى حالة ذهول، كيف لذلك السفاح أن يتحدث وكأنه ملاك

طاهر؟ كيف لشخص يقبض الأواح تحت مُسمى رحمة أن يتصف بتلك الأريحية؟ أى دماء باردة تسرى بعروقه؟

نظر القاضى له غير مبالٍ للخطبة الطويلة التى سمعها، وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ صدق الله العظيم خلق الله الإنسان وميزه بالعقل و خصبعض خلقه منهم بالحكمة، وخص بعضهم بالجهل، فالحق بتقرير مصير الروح يرجع لواهب الروح عز و جل ولا يحق لمخلوق التعدى على حق الخالق، فهى أمانة نفخها الله بجسد بنى آدم حتى يحين موعد رد الأمانة بيوم مكتوب عنده وحده عز وجل، فقتل النفس حرام، فقال عز وجل فى محكم آياته، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ صدق الله العظيم.

وبعد الاطلاع على الأدلة و سماع الشهود والمرافعات والنظر لملف القضية وتحريات النيابة، مع وجود اعتراف كامل و مفصل للمتهم دون ضغط أو تعذيب، واعترافه بارتكاب الجرائم المشار إليها بملف القضية بالقتل العمد بإستخدام مادة سامة تحت مُسمى قتل رحيم، و حيث نصت الفقرة الثانية من المادة ٢٣٤ من قانون العقوبات على أنه «يحكم على فاعل هذه الجناية (أى جناية القتل العمد) بالإعدام إذا تقدمتها أو اقترنت بها أو تلتها جناية أخرى»، وعليه:

حكمت المحكمة حضوريًا و بإجماع الآراء، على المتهم - جورج جبرائيل - بإحالة أوراقه لفضيلة مفتى الجمهورية.. رفعت الجلسة.

❖ ❖ ❖

الفهرس

إهداء خاص..... ٥
شكر وتقدير..... ٩
الفصل الأول..... ١١
الفصل الثانى..... ٢٠
الفصل الثالث..... ٣٦
الفصل الرابع..... ٤٤
الفصل الخامس..... ٥٥
الفصل السادس..... ٦٤
الفصل السابع..... ٧٥
الفصل الثامن..... ٨٢
الفصل التاسع..... ٨٩
الفصل العاشر..... ٩٨
الفصل الحادى عشر..... ١١١
الفصل الثانى عشر..... ١٢١
الفصل الثالث عشر..... ١٣٦
الفصل الرابع عشر..... ١٥٥
الفصل الخامس عشر..... ١٧٢
الفصل السادس عشر..... ١٨٧
الفصل السابع عشر..... ٢٠٢
النهاية..... ٢١٨